217

جائزة الشارقة للإبداع العربي
الإصدار الأول | الدورة 12 | 2008

الثالث في مجال الرواية – مشاركة

المخاوي
(المُنْجي)



محمد عبدالمنعم الحناطي

المخاوي

المخاوي

(المنجي)

روايــــة

محمد عبد المنعم الحناطي

إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة 2009 م

الناشر: دائرة الثقافة والإعلام
حكومة الشارقة ـ دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 5671116 6 971+
برّاق: 5662126 6 971+
بريد اليكتروني: sdci@sdci.gov.ae

الطبعة الأولى 2009

٨١٣.٠٣٩٦٢	محمد عبدالمنعم الحناطي
م ع م	المخاوي (المنجي)/ محمد عبدالمنعم الحناطي.- الشارقة دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠٩.
	١٠٠ ص؛٢١ سم.- (جائزة الشارقة للإبداع العربي في مجال الرواية ٢٠٠٩)
	الكتاب الحاصل على الجائزة الثالثة بالمناصفة في مجال الرواية
	١- القصص العربية - مصر أ- العنوان ب- السلسلة

ISBN: 9948-04-569-6
ISSN: 9948-04-103-8

إهـــداء

إلى أبي

علمتني أن خلاص المرء في إخلاص ضميره، وإخلاص ضميره في تعلقه بالله.

إلى كل من أحبطوني

لولاكم ما خرجت هذه الرواية للنور

إلى أهل قريتي (وكأنها كل القرى)

أو كلما مات «منجي» انتظرتم غيره، فإلى متى يظل الانتظار وسيلة للانتصار؟

وإليكم جميعاً

هل في الحياة ترف يستحق أن ندفع فيه كل هذه المعاناة؟!

إهداء خاص جداً

إلى روحه الطاهرة حيث أراها (عمي سامي)

«السر الذي أودعته صدري مازلت أنطق به دون أن أفشيه»

-١-

«مُنْجي»

حينما طلب صديقته للرقص كان يجب أن يخبرها أنهم زرعوا الساحة بزجاجات العطر المكسورة، ساعتها كانت النشوة أقوى من قدرتهما على المقاومة، لم يشعرا بالنزف وهو يختلط بالعطر، تتصاعد الأنات إلى السماء يعود رجعها كأنه آهات اللذة.

هكذا تتهيأ له الخيالات، بعد صلاة الفجر، زقزقات النسيم، بكارة الندى على التراب، الحذاء اللميع يمشي بخفة دون أن يترك أثراً للطريق الترابي عليه، لا ينتظر الميكروباص كثيراً .. دقائق ويكون في سيدي جابر.. جلسته إلى البحر، يقولون إن الجنية اصطادته من هنا.. غواها بعضلاته المرسومة وعنفوانه وهو يضرب البحر بذراعيه كأنه طائر خرافي، الملعونة حرمته من

صنف النساء، تتجسد له كل ليلة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، يعود بعد أن يملأ صدره بالبحر إلى سموحة، ليصل إلى الكوافير الذي يملكه مع دقة الساعة ليجد البنت سناء تعد له النسكافيه ككل صباح، يعتني بمظهره إلى أقصى درجة، خبير في جدائل الأنثى، يعمل بخفة وسرعة، لا تكاد تشعر إحداهن إلا وهي تنظر إلى نفسها في المرآة لترى السحر بعينه، يقولون إن العفاريت تعمل معه، ليس طبيعياً، هذه السرعة والخفة، حتى الأدوية والأعشاب التي ينصح بها زبائنه، دائماً تأتي بالنتيجة، شهرته تسبقه، الكل يعرف المنجي، وهو يعرفهن من خصلاتهن، أعمارهن، أوجاعهن، هذه المرأة تتزين لعيد زواجها وهذه للخطبة، وهذه سوف تذهب مع فتاها للسينما، وهذه سوف تبيع لحمها اليوم، تظهر التعبيرات على وجهه، يعرف أنهن يتغمزن عليه، تعجبهن عيناه العسليتان، عضلاته المفتولة، والأكثر هو الغموض، كلهن يفكرن في الرجل الذي لم تستطعه أنثى، هذا الثري الذي يمتلك عمارة في الشاطبي على البحر ويصر على أن يظل مقيماً في قريته بالقرب من أبيس، وهو.. علمته الحرفة أن يكون حيادياً، لمساته، نظراته..غير ملتفت لنظراتهن، وحركاتهن وكلامهن الذي يكشف الرماد ويثير الجمر، عائداً مع انتصاف الليل كما جاء.. لا يملك سيارة ولا هاتفاً محمولاً ولا مشغولات ذهبية، فقط مبلغاً كبيراً يعود به كل ليلة ليطرق البيوت المعلومة ليعطي كل بيت نصيبه من الصدقة التي لا يعلمها إلا الله وحده.. وبعد أن ينتصف الليل ينام على سريره بعد أن يدير الكاسيت على أغنية لأم كلثوم ويقوم على صلاة الفجر ليمارس حياته الطبيعية جداً من وجهة نظره فقط.

- ٢ -

«البلطي»

أنا عبد الرحيم البلطي الشاهد الحقيقي على ما حدث، وأعرف الحقيقة التي لا يعرفها الجميع، كلهم يعتقدون أن المنجي له علاقة بالجان، وأشهد أنه رجل طيب، يرى بنور الله، هو الذي أنقذنا، حينما أخبرنا بهوجة البحر في غير وقت النوة، الجن لا يعرفون الغيب، هو رجل طيب، يتصدق على المساكين، أما مسألة عدم زواجه بالنساء أو عدم ميله إليهن، هذا أمر يحدث كثيراً، فجدي عبد العليم عم أبي مات دون أن يتزوج ولم نسمع عنه أنه مخاوي جان، هذا كلام تخاريف، أنا لن أسمح لأحد أن يذكر الرجل بسوء أمامي، حتى زوجتي حسنات هذه السليطة، لا تقدر لهذا الرجل فضله وهو الذي دفع مصاريف علاج ابننا الكبير «السيد».. عملية زرع الكبد كانت وحدها كفيلة بأن نبيع حتى ملابسنا عليه دون أن نفي بها، وحده

تدخل وأتم الموضوع بعلاقاته وماله.. يا رب يبارك لنا فيك يا منجي، ابني السيد يحبه، على الرعم من اللحيه التي ملأت وجهه وبعده عن سماع الأغاني، وإجباره لأمه وأخته حياة أن يرتديا النقاب، فإنه لا يطول المنجي بكلامه فهو يحبه، ولا يتحدث عن الكوافير الذي يملكه، ولم يذكر ولو مرة أن المنجي كافر، فقط أسمعه يدعو له بالهداية في كل صلاة، أقسم المنجي أن عروس السيد هو الذي سوف يدفع مهرها وشبكتها، حينما يتخرج في كلية الآداب، ولكن السيد خيب أملنا فيه.. ربنا يجازي من كان السبب، وحدثت الأزمة لابنتي حياة.. وقبضوا على السيد، لم يقف إلى جوارنا سوى المنجي، هو من صرف أجرة الأطباء لحياة، حتى شفيت تماماً، وجاءها بالستر.. العريس المحترم، وتكفل بكل شيء حتى أوصلها إلى بيت زوجها، إن ما فعله المنجي لا يفعله الأخ الشقيق، ولست أنا الوحيد، غيري كثيرون، أما عن حكاية سندس الغازيّة، فلا أصدقها، الناس لا يتركون أحداً في حاله، وسندس فاجرة ويمكنها أن تقول على الرجال ما في الخمر من منكر، هذا ما في ضميري تجاه المنجي، الوحيد الذي لو طلب روحي لكنت راضي النفس وأنا أعطيها له، ليتهم يأخذون قلبي فيزرعوه له، حتى تعود ضحكته الصافية كما كانت، ربنا يخليك ويمد لنا في عمرك يا منجي.

-٣-

«حياة»

صعقت عندما عرفت الخبر.. قلب المنجي في خطر.. القلب الذي كم تمنيت أن يدق لي ولو مرة واحدة.. كم أحبه.. لم أفكر لحظة في فارق العمر بيننا، وأنني في السابعة عشرة وهو.....، من هو؟ لا أجد أي مفردة تحويه، الكلام عاجز، يقولون إن لكل بنت فارس أحلامها، سيدها، التي كل أحلامها أن تدخل فيه تذوب في تفاصيله، تختبئ كما يختبئ العاري في البحر، البحر الذي كنت أرى عضلاته وهو يسبح فيه، يعلم أخي سيد السباحة، كان يبتسم لي وهو يخرج من البحر، قطرات الماء تتساقط كأنها تغيظني بالعطش إليه، يطلبني في المستشفى؟، بالاسم قال لهم «حياة» أريد أن أراها، جاء أبي إلي لاهثاً، ألقيت الطرحة على رأسي وخرجت كالمخلوعة من جذورها، ترتعش أوصالي، ظن أبي أن الجني الملعون عاد لي، بدأ يلهج لسانه بالآيات «قُلْ أَعُوذُ

بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ والنَّاس».

ذكرني بالمأساة التي أصابتني بسببه، المنجي الذي كنت أحبه وهو لا يشعر بي، يعاملني كطفلة، أغلق على نفسي الحمام، تراودني قطرات المياه المنسابة على جسدي، أترك لنفسي الفرصة لأرى هذا الجسد الذي لا يشعر به المنجي، هذا الجسد الذي إذا تحرك، عزف على أوتار الشباب الجالسين على المقهى غربي البلد، أو تتحول العيون في الميكروباص، تنقلب الدنيا على الكورنيش، تلاحقني العيون في كل مكان، كأنها تحاصر الجسد بهوسها، قد تنزعج الواحدة منا من المغازلة، ولكنها قد تموت من الإحباط إذا لم تحصل عليها، دخلني الملعون، أخي كان السبب، والمنجي أيضا، تآمرا عليَ، المنجي يتجاهل توهجي، وأخي يلبسني النقاب، أعرف أنه لم يجبرني عليه كما يقولون، ولكنه أدخل في ذهني الفكرة، عرفني إلى الأخوات، دروس التوحيد والعقيدة، يا رب هل هو ابتلاؤك لمن تحبهم فتخلصهم إليك، لا يدخلني الوسواس إلا بعد أن أرتدي النقاب، أتخلص من مطاردة العيون، ومن تجاهل المنجي، ومن الدنيا وزخرفها، من أجلك أنت يا رب، بكيت لأنني لم أكن مخلصة هكذا، كنت أحاول يا رب، يجيء لي.. يزنّ مثل الدبور في أذني، يحثني على أن أخلع النقاب، إنه يحجبك عن الناس، أنت صغيرة وجميلة، كيف ستحصلين على عريس مناسب؟، تخافين من كلام الناس؟، يخترع لي الحلول، في موعد الصلاة، يزنّ في أذني «هي الصلاة تفيدنا بإيه؟»، أستغفر الله وكأنني أنا التي قلت،

يستمر في الزنّ «بتستغفري مين؟ هو فين ربنا ده؟هو إنتي شايفاه؟، إنتي بتكلمي نفسك؟ ».. أهرب منه.. أقاومه، ألجأ إلى القرآن، يدخل إلى عقلي كلام المشركين أن الرسول شاعر. يحتويني مدرس اللغة العربية الطيب، بلحيته البيضاء وابتسامته الصافية، بينما أتأرجح بين الشك والعذاب «يا بنتي، العرب يدركون أن لغة القرآن لا يأتي بها بشر، وكلامهم هذا مردود عليهم منهم، حينما تتعمقين في اللغة وتكبرين ستعرفين إعجازه اللغوي»، أنا أثق بكلام الأستاذ، ولكن نظرته لي بعد أن سألته تغيرت، كيف أنني أرتدي النقاب وأسال هذه الأسئلة، ربما لا يعرف ما أعانيه، أخفيت الأمر عن الأخوات، عن أمي، وأخي، وأبي، حتى صرخت من الوساوس التي تتزايد، أخذوني للطبيب، كان كبيراً في السن وقاسي اللهجة، طيب القلب

– إيه اللي عملتيه في نفسك ده؟، ولابسة نقاب كمان؟ فين الإيمان بالله؟واللا لابسة ده موضة؟

يشير إلي بنفس القسوة أن أنام على السرير، وبعد ساعة، أكتشف الدموع في عينيه، يكتب لي الروشتة، يداري دموعه بسرعة.. كما يداري حنان القلب بقسوة اللهجة. «المنجي» هو الذي دفع أجرة الطبيب والروشتة، يدفع ثمن خطئه الذي لم يدركه، الطبيب قال لي دعي الأوهام، اطرديها من رأسك، لا يوجد حب بهذا الشكل إلا في خيالك..أنت فقط، ولهذا مرض خيالك، وسيطرت عليه الوساوس، هل كان يعرف أنه جني، ويصر على التعامل مع الأمر على أنه مرض، العلم والخرافة يتصارعان في رأس أكبر طبيب، العالم الذي يقصده الآلاف،

ويلومني ويتهمني بالسفه لأنني أحب رجلاً في الأربعين، لماذا بكى الطبيب، عندما كنت أحكي له؟ شعرت وكأن الجني الوسواس ينتحب هو الآخر، حلَّ عني، غادر حياتي، هل كانت الأدوية المرهقة التي تهدني، وتفتت عضالي هي الحل؟، أم كلمات العالم العجوز؟ لهجته القاسية التي تشبه الخناجر التي أصاب بها القلب في العمق، أم نزيف القلب الذي ظهر في لهجتي؟ إخلاصي إلى الله بالدعاء؟ نعم أذكر الدعاء الذي قلته وأنا على سرير العيادة «اللهم إنهم لا يعلمون كم أحبك، وكم أتحمل كل هذا من أجلك أنت، أعرف أنك تعاقبني لأنني أشركت بك في قلبي، جعلت «المنْجي» يحتل مساحات أولى بها ذكري لك، ولكنك الرحيم، الغفور، الشافي، لا إله إلا أنت، أراك في قلبي أحسك الأمان الذي يريده العالم، ولا يعرف سره، اللهم لا تعدني مرة أخرى إلى هنا إلا وقد شفيتني».

شفيت تماماً .. وتزوجت عوض العريس الذي أتى به المنجي، عوض راقي الإحساس وطيب القلب، ساعده المنجي على أن يتعين في شركة المياه، بمرتب يحسده عليه الشباب في القرية، جهزني المنجي بجهازي، لا أدري هل ما رأيته يوم زفافي كان حقيقة، أم محض خيال، نعم رأيت دمعات المنجي تفر منه، كعاشق هزمته اللوعة، ربما كأب يودع ابنته؟، لا أدري، رأيته بعيداً يختفي عن العيون، يداري دمعاته التي فضحته لي؟ هل كان يحبني «المنْجي» طول الوقت وأنا لا أعرف، يحبني ويسلمني لغيره، والآن يطلبني وهو على فراش الموت، موت؟ لا ليس بهذه السرعة يا رب؟ لو لم يكن الأمر خطيراً ما ظهر على

وجه أبي، وهمساته لنفسه وكأنه لا يعرف ماذا يقول «زرع قلب»، فليأخذوا قلبي الذي تمنى أن يدق في حضنه ولو مرة واحدة، لا أطيق العذاب بعده، مثلما أطيقه الآن، النظرة إلى وجهه الصبوح تغنيني عن الدنيا بآلامها، أرجوك يا رب، لا تحرمنا لذة النظر إلى المنجي ولا العيش معه... آمين

-٤-

«شمعة»

«فلنصلّ جميعاً من أجل هذا الرجل الطيب» قالها الأب يوحنا في الكنيسة، كانت دموعه تتوسل إلى الرب أن ينقذ المنجي، هل كان صديقه، ماذا فعل المنجي للأب، ما السر الذي كان بينهما؟، لا أدري، كل ما فعلته أنني صليت بقلبي من أجل أن يراعي الرب المنجي ويشفيه، أنا أعرفه جيداً، كانت أمي المريضة تعاني سرطان الثدي، كانت شلة السوء تجرفني للمخدرات، لم أكن أزور الكنيسة، وكأنما أُطْفئت شموع روحي، صرت معتماً، اعترضت طريقه، «المنْجي»، كنت أعرف أنه يأتي دائماً في هذا الوقت من الليل وبحوزته المبلغ الكبير الذي يتصدق به على البيوت المعلومة، أوقفته، أشهرت السيف في وجهه، طالبته بأن يخرج كل ما معه، نظر لي كأنه يعرفني رغم الظلام الشديد واللثام الذي يغطيني، ليس لك شيء في هذه

الأموال، هذه أظرف معلوم أصحابها، أخبرته أنني سأحصل عليها وإلا قتلته، ابتسم لي ابتسامة الرب الرحيم، قال إن هذه الأموال ليست لي إلا مظروفاً واحداً فقط، أعطاني المظروف فوجدت اسمي مكتوباً عليه بالكامل «بيتر جرجس ميخائيل»، كيف عرفني؟، وكيف علم أنني في حاجة إلى المال؟ المظروف عليه اسمي الثلاثي؟!!.. أمرني أن أزور الكنيسة وأصلي من أجله، وقال لي يكفيني شمعة واحدة لتضيء عتمتي، وقع السيف من يدي كأنها المشلولة، أجدني في حضنه الواسع، كنت أسمع دقات قلبه المليئة بالسكينة، لا يهمني ما بينه وبين الأب يوحنا، كل ما أعرفه هو ما كان بينه وبيني، لا تسألوا لماذا كانت الدموع تملأ الكنيسة من أجله، بل حاولوا أن تحصلوا لأنفسكم على شمعة واحدة تصلي من أجلكم فتخرجكم من عتمتكم الحزينة.

- ٥ -

«سندس»

الموالد لعبتي، لا وطن ولا مكان أقر فيه، فقط، هناك في هذه القرية عندما دخلتها شعرت بأنني سأبقى، وأنا أرقص وأغني على المسرح الخشبي رأيته وسط الجموع «المنجي»، عليه خجل لا يناسب سنه، غمز لي عزت بعينه، أدركت أنه صيد ثمين، آخر السهرة، أخذني عزت إليه جلسنا وحدنا وخرج عزت بعد أن قبض ثمني، رجل يدفع الثمن وآخر يقبضه وأنا بينهما، الخبرة علمتني كيف أخرج دائماً رابحة، إلا هذه المرة، حمدت الله أنني أفلت بجلدي، لقد تبت بعدها، ولكني لا يمكن أن أنسى تفاصيل هذه الليلة، خرجت كالمجنونة من داره التي في آخر القرية على امتداد الترعة الكبيرة، الحديقة الخضراء المحيطة بالمنزل الكبير يهيئ لي طلعها وكأنه جماجم ورؤوس شياطين، فزع أهالي القرية حينما رأوني أصرخ وسط البلد كما لو كانت النار تأكلني،

تسعى في جسدي كله، سألوني ماذا حدث يا سندس؟، أخبرتهم بعد أن هدأت، لم يصدقوني، قالوا إنني أفتري على رَجُلِهِم المبروك، وأنني أقول على الشهد ما في الخمر، قلت لهم : هذا الرجل لابد أنه مخاوي جان، عفريتته لم تدعني حتى أتدلل وأمارس مهمتي معه، بعد أن انصرف عزت وخلوت إليه، ألاعبه، كان يتفصد العرق من وجهه.

– يا حلاوتك يا ولا، بتنكسفي يا بيضا

انتفض حينما اقتربت منه، سرت رعدة في جسدي حينما لمست بيدي جبينه، قطرات العرق كانت لامعة جدا ومتبلرة، لم أر في حياتي مثله، وجهه كأنه مضاء بلون النيون، بقدر ما أفزعني بقدر ما اشتهيته، هرب مني فشددت جلبابه، تعرى، يا ويلي منه، لا يمكنني الوصف، فقد تسمرت عيناي، تسربت داخلي قطرات اللهفة تمنيت أن تلامس جلده فيشتعل، الرجفة في عينيه أم الغضب، المقاومة أم الخضوع، لا أدري، كل ما أعرفه أن المرأة في هذه الحالة لا ترى شيئاً غير نفسها، ترى الدنيا وكأنها فضاء حلم، وارتشاف لذة، كان يريدني، أم أنا التي أردته، اقتحمته، لم أدع له فرصة ليهرب من أدواتي في القنص، وشهوة العنكبوت في امتصاص الفريسة، استسلم لي تماماً لولا الملعونة، النار تزحف على قميصي أخلعه عني، أجري عارية، يا روح ما بعدك روح، النار في جسدي تلدغني، أشعر بها وأراها، أسمع أصواتاً كالفحيح، أتعثر، في شجرة الجوافة، أرى طلعها وكأنه رؤوس الشياطين، أنتفض إلى شجرة البرتقال كأن طرحها جماجمٌ، أجدني في منتصف القرية، أهرول عارية،

يجري نحوي عبد الرحيم البلطي – الله يستره– يخلع عباءته ويغطيني بها، بعضهم يصدقني، والبعض يظن أن هذه حيلة من أجل أن أستجلب الشفقة وأبقى في القرية كامرأة تائبة، المنجي لم يتركني برغم ما قلته عنه، بنى لي بيتاً، أقطعني أربعة قراريط بجوار البيت، أزرعها وآكل من خيرها، لم أتزوج بعد هذه الواقعة، الكل أصبح ينظر لي بعين الشك، هل أنا مجنونة؟ لا يهمني ما يقولون، ولكن هل كان يمكن أن أتجاهل ما حدث، ما زلت أذكره كأنني أعيشه، وما أبريء نفسي، ما زلت أشتهي المنجي برغم هذا الرعب الذي زرعه في قلبي، يقولون إن قلبه في أزمة، كان الله في عونه إن ما تحمله قلبه لا يتحمله بشر، خطوات ويمكنني أن أرى المستشفى بأم عيني، هل سيسمحون لي بالدخول لأراه وألمس جبينه مرة أخرى، فأحتفظ بالبلور في يدي، هل سأكرر المحاولة برغم ما حدث؟ لابد من النار لتستوي الحلوى، إنها المغامرة تدفعنا دائماً لاقتحام المجهول رغم معرفتنا بخطورة ما نفعل.

- ٦ -

«الأزمـــــة»

لقد مات أبوه بنفس المرض، دون أن يلحظه أحد سقط من علـى السقـالـة، قلبـه لم يتحمل الإرهـاق الشديد، كان وقتها المنجي في الإعدادية، خرج من المدرسة ليحضر جنازة والده دون أن يعود مرة أخرى، أخذه عبد الرحيم البلطي، استأذن الناظر البدين ذا الوجه الأحمر البض والسترة الأنيقة.

جرى المنجي إلى حضن أبيه..كشف عن وجهه.. حدثه دون أن يرد عليه، كان جسده بارداً، نزلت الدموع ساخنة كالوجع، كان عبد الناصر أبو المنجي مهيباً، كرامته وعزته أغلى عنده من الدنيا، لا أحد يعرف من أين أتى؟ وكيف قطن هذه القرية مع ابنه ليعمل في الخرسانة، وهو ما يبدو عليه أنه ابن عز وثراء، المنجي نفسه لا يعرف سر أبيه ولماذا أخذه وهو صغير تاركاً

أهله ليقطن هذه القرية، ما يعرفه الولد أن أمه ماتت، وأعمامه جاروا على حق أخيهم فتركهم دن رجعة، أهل الخير تجمعوا من أجل أن يدبروا مصاريف الجنازة، جاء الأب الطيب وعرض المساعدة، ربت على ظهر المنجي ومسح على رأسه، هدأ المنجي الصغير، وانتهت الجنازة، وقف المنجي متشبثاً بالقبر، أبوه دخل حالاً، أهالوا عليه التراب، لن يراه مرة أخرى، لن يجد من يحكي له عما حدث في المدرسة، ربما لم يخطر بباله ساعتها أنه لن يجد مصاريف المدرسة ولن يعود إليها مرة أخرى، الأب يوحنا أخذه لـ «نسيم» الكوافير وأوصاه عليه، وعبد الرحيم البلطي كان يبعث له السمك كل يوم، وأهالي القرية كانوا يغمرونه بالخير كل موسم، شب ومعه كثر الخير، اشترى له محلاً باسمه في سموحة، لم يفكر في الزواج، من سيرضى به، وكلهم يعرفون أنه فرع مقطوع، لم تعد له شجرة ولا عائلة، إنه نما في وسطهم وبإحسانهم، أحسن تدبير الأموال واشترى العمارة، لم يكن يقرب المعاصي، المرة الوحيدة التي تعرض فيها للمعصية، كانت عندما جاءته سندس، عندها رأى برهان ربه، وتابت سندس، ظن أنه ملبوس أو كما يقول الجميع مخاوي جنية، ذهب للشيوخ، أخبروه أنه صاغ سليم، ولكنه حصور، نفسه تزهد النساء، كيف وهو يحب حياة، يكتمها في قلبه، كبرت أمام عينيه، كان يوازن بين شعوره كأخ أكبر لها وبين ما يخبئه، أبوها البلطي فعل معه الكثير وهو لا ينسى الجميل، لا يمكن أن يرضى أن يكون مصير ابنته إلى فرع مقطوع، ساعدها على الزواج بشاب ابن عائلة كبيرة وساعده للعمل في شركة المياه بمرتب محترم، كان يتمنى لها السعادة، ولم يكن يخطر في باله،

أنها ستكون تعيسة بهذا الزواج وسيكون مصيرها الطلاق، عاد إليها الوسواس القهري، مسكين البلطي، ابتلاه الله في ولديه، السيد ارتدى الجلباب القصير وأطلق اللحية فقبضوا عليه، ثم أطلقوه ليسافر إلى إيطاليا عن طريق البحر، وحياة كالبحر يهيج في لحظة فيحطم السفن والمراكب ويعود لهدوئه القاتل، هل هي فعلاً كذلك، أم هي كالبركان مهما خمدت فوهته تبقى النيران مشتعلة في العمق، لا يعلم متى تثور، وكيف تخمد، إلا الله، الكل يتجمع في رواق المستشفى، لا يسمحون لهم بالدخول، ربما لا يعرفون أن المنجي سيسافر إلى الخارج ليزرعوا له القلب، أي مضغة هذه التي قلبت الدنيا في مكان واحد وفي لحظة واحدة، في انتظار ما سوف يحدث.

-٧-

«السياســـة»

لا بد أن يحسد الأغنياء الفقراء على فقرهم، يمكنك وأنت فقير أن ترى الحياة بشكل أكثر ثراء وحيوية.

يمكنه أن يحكي عن أيام الفقر فيكون الحديث طويلاً عن العيش الذي له طعم الجوع ورائحة الطرشي والطعمية واليوم الذي يمضي وأنت تنام على سريرك لا تفكر في شيء مادام ثمن ساندويتش الفول الصباحي معك، وحتى لو لم يكن معك، من السهل أن تقترض ثمنه أو تأخذه شكك حتى يفرجها الله، يفرح بالبقشيش الذي تعطيه له زبونة معطرة، يشم في العملات الورقية رائحة النقود والعطر، الفقر علمه كيف لا ينظر إلى محال الملابس بأسعارها الفلكية، فهو يعرف من أين سيشتري ويفاصل، ويدرك قيمة ما اشتراه وضرورة المحافظة عليه، لا

ينظر له أحدهم فيما يلبس أو يركب أو يشرب، ليس معرضاً لذبحة صدرية نتيجة خسارة مفاجئة في البورصة، أو أن ترسو مناقصة من العيار الثقيل على غيره، فينكشف وضعه أو يرسب في الانتخابات فتتعطل مصالحه،... وهكذا، أخبار الأغنياء كلها تصب في المحل عنده، تظهر التعبيرات على وجهه مع كل فضيحة أو حكاية، الهموم هنا كبيرة وصعبة ولا دواء لها، هناك فرق شاسع بين أن تكون على قمة الجبل فتسقط، وبين أن تكون على الأرض، بالتأكيد على الأرض يختفي معنى السقوط باستثناء الحفر، يا رب سلمها على كل حال، يسمعهم يتحدثون عن أفخم المأكولات التي يصل الأمر لاستيرادها خصيصاً لبعض المناسبات، وبالطبع يأكلون ولا يبذلون جهداً مثلنا نحن الفقراء، فيزيدون في الوزن، ويبحثون عن حلول لمشاكل السمنة فيشترون الأدوية الباهظة والمعدات الرياضية ويدفعون الأموال في الجيم، وفي النهاية يصومون مثلنا عن الطعام باسم الريجيم، الفقر مريح جدا للفقراء على الأقل يحميك من الخوف منه، فأنت لا تخاف الفقر وأنت تعيشه، وهكذا كان المنجي قديماً، يقطع المسافات سيراً على الأقدام حتى يصل إلى محل «نسيم» يقابله الرجل بابتسامة هادئة :

– في ميعادك بالضبط يا منجي

كان راضياً عنه، مهارته وطريقته في معاملة الزبائن، والأهم إخلاصه للمحل، تعلم المنجي من أيام الفقر، كيف يجعل حب الناس هو الملجأ، لم يفكر لحظة في كلام الجرائد، أو حديث النسوة عن السياسة، كان يقتنع إلى حد بعيد بكلام الشيخ باهي

«كل شيء يا بني حدث فعلاً نحن فقط ننتظر رؤيته ولا دور لنا في تغييره» لم يفهم الكلام أول الأمر، ولكن الشيخ شرح له كيف أنه لن يستطيع أن يأتي بالشمس من المغرب، قدرة الإنسان محدودة، فيجب أن يقف عند حده، السياسة في وجهة نظره هي طريقة التعامل مع الناس بحيث لا يخسر أحداً، مع أنه يرى من يدعون معرفتهم بالسياسة في صراع دائم على المقهى مع بعضهم البعض، حول أفكار لا يفهمها، قالت له الست حكمت زوجة السياسي الشهير وهو يمشط شعرها:

الرجل يشغل نفسه بالسياسة أكثر مني، فتنصحني أمي أن آخذه بالسياسة، بتفهم في السياسة يا منجي؟

تعثر المشط في شعرها، انزعجتْ، اعتذر بمنتهى الأدب، لكن تبقى الأسئلة كما هي تطرح ولا إجابة؟

لماذا قبضوا على السيد بن عبد الرحيم؟ الأمر لا يتعلق بالدين فهم لم يقبضوا على الشيخ باهي؟ يبدو أن الأمر أكثر تعقيداً يا منجي من الأفضل ألا تتدخل مطلقاً، ولكنه رأي الولد عوض بن عبد الستار يسقط، أمامه في المرآة، رآه كأنه في حشد كبير من الطلبة يهتفون، انقبض قلبه «هل فعلاً أنا مخاوي؟، كيف حدث هذا؟ أنا لم أكن أحلم، رأيت المشهد بين الحلم واليقظة، رأيته في مرآة المحل كما لو كنت أراه في التلفزيون»، دقائق وجاءني الخبر، قتل الولد في المظاهرة ولا يعرفون كيف ينهون الإجراءات، لم يجدوا غيري، أجريت اتصالاتي، السيدة المحترمة زوجة اللواء الكبير وعدتني بإنهاء الإجراءات وقد كان، انتظار وصول الجثة أمر مهيب في القرية، البلد كله على

قدم واحدة، الرجال والنساء، الصبية الصغار كفوا عن اللعب، أغلقت أجهزة التلفاز بمنتهى السرعة، لا صوت لكاسيت، النحيب يمتزج بأصوات الصراخ الذي يعلو فيصل إلى أعلى السلم الموسيقي ويهبط في خفوت، الصراخ الأوبرالي منغم بالحزن، مفعم بالمرارة، تجلس الأم الموجوعة على جذع النخلة المقطوع «فكوا قميصك يا العريس يا صغير، انفرطت حباته، شاوروا عليك قالوا تبات في الحنة، زي اللي قبلك في الحرير ما باتوا، يا دود في كبيدي ارعى وسيب لي وليدي، يا عقد عمري وانفرط حباته»، تجرى الاتصالات بالمنجي ومن معه، دقائق وتصل الجثة، المنجي كثر خيره يا رب خلص الإجراءات، النسوة يقعدن مقاعد للسمع، يتهامسن، يعرفن الخبر، «الجثة خلاص على وصول، المنجي.....»، تسمع الأم المحسورة كلمة الجثة، تنتفض، يعلو الصراخ، تأخذ التراب وتحمله على رأسها، تمسح بوجهها الأرض، يحاولون منعها، يفشلون، تلطم الخدود، تشق الجيوب، يمر الشيخ باهي، يحوقل ويستغفر الله، يفتح ميكروفون المسجد، يحمد الله ثم يثني عليه ويشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله، يقرأ قوله تعالى «كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور»، تهدأ الأم، يغزوها شيء من السكينة، كحقنة مهدئة للأعصاب، كان تأثير الآيات في النفوس جلياً، صمتت القرية، الحشود الواقفة أمام المسجد الكبير، تنتظر القادم، سيارة الإسعاف، «بسرينتها» التي تخترق الصمت، لا صوت يعلو سوى صوت الشيخ، صفهم للصلاة، واختار أبا الولد ليصلي عليه فلم يستطع، وقد افترسه النحيب

أوصى للمنجي بالأمر، انزعجت بعض العمائم الكبيرة، لولا كان الأمر لرجل من القريتين عظيم، لكنهم لن يقسموا رحمة الله كما يشاؤون، صلى المنجي إماماً بهم، أوصلوا الفتى إلى قبره، بينما سقط المنجي كالمفاجأة على المقابر، وسط الجموع، ظنوا أنه مات، أخذوه لطبيب الوحدة الممارس، اشتباه في أزمة قلبية، كل هذا الوقت لم يشتك قلبك يا منجي، ثم مرة واحدة تدخل الأزمة، كنت تهرب من السياسة، وتكره الصدام، قتلت السياسة ا بن قريتك، وأصابتك بأزمة في القلب، كان يجب أن تعرف سبب سقوط المشط من يدك عندما سألتك الست هانم : «بتفهم في السياسة يا منجي؟»

-٨-

«الإشـــــارات»

عم يتساءلون؟ الكل يريد أن يعرف السر، كيف عرف المنجي هوجة البحر قبل ميعاد النوة، كيف عرف أن بيتر في حاجة إلى المال فضمه لأصحاب الصدقة المعلومة، الشيخ باهي يتلو عليهم «ولا تقْف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا»، يقول لتلاميذه ومريديه إن كل شيء حدث فعلاً في علم الله حتى الذي نراه لم يحدث بعد، الله وحده هو الذي يعلم الغيب، يترك لنا الإشارات الدالة عليه، فقط المبصرون من يرونها ويفسرونها فيعلمون ما خفي عنهم وأراد الله لهم أن يروه، إن المبصر قد يهم بالمعصية فيرى أشياء عادية تحدث في طريقه، يعيها فيرجع، إذا رأيت سقوط ثمرة من على شجرة فقف متأملاً لماذا سقطت أمامك في تلك اللحظة فربما كانت هي نفسها إشارة بسقوطك أو ربما كانت إشارة خير

بقضاء ما تريده كما اختارتك الثمرة، بعض العوام ينقلون تفسير الإشارات عن مشايخهم فقد تلقي العصفورة على ملابسك وسخها فيفسر ذلك الشيخ بأنه إشارة إلى أن يبدلك الله ملابس جديدة غيرها، فيتأثر العوام بتفسير الإشارة وينقلونها لذويهم فيصبح وسخ الملابس بسبب ما يلقيه العصافير بشرى، مع أنها ليست كذلك في كل حال، فالأمر يتطلب معرفتك بالله لتستطيع أن تقرأ الإشارات، يمشي الشيخ باهي على جسر الترعة، بخطوات خاشعة يقترب من حديقة المنجي، كان للمنجي جنة محفوفة بالنخل يسير جدول من الماء خلالها، متصلة بالترعة من ناحية ومن ناحية تفضي إلى المصرف الغربي عبر قناة صغيرة، لم يكن هناك حارس على الحديقة ولا أسوار، النخل يحفها كسور طبيعي ولكنه لا يحجب الفقراء، الكل يأكل من حديقة المنجي، دون أن تنقص شيئاً، الثمر يزداد، دخل الشيخ باهي إليها، فرد عباءته، ملأها بالثمار، لمّ أطرافها، مشى إلى الترعة، العيون تراقبه، بدأ يقذف الثمار في الترعة، الولد رضا كان يصب الشاي من البراد الذي استوى على الجمر، رأى الثمار وهي تقذف في الترعة، صاح متعجباً أن الشيخ باهي قد جن لا محالة، ولم ينطق بعدها، خرس لسانه، سقط براد الشاي من يده، فار الجمر عندما سقط عليه الشاي، اشتعل، ارتفع اللهب، فزع الجميع، قاموا يهيلون التراب على الجمر المتقد، شغلتهم مصيبتهم عمًّا يفعله الشيخ باهي حاملاً عباءته مراراً من الحديقة إلى الترعة، جرد حديقة المنجي من ثمارها، امتلأت الترعة عن آخرها بالثمار، كان المشهد عجيباً، الأولاد الصغار ينزلون إلى الترعة فيأكلون الثمار ويتقاذفون بها،

الشيخ باهي بخطواته الخاشعة يسير عائداً كما جاء، لا يهتم بالعيون الراصدة المتسائلة، يستوقفه شيخ الخفراء.

– قف هنا يا مولانا.

ينظر إليه نظرة صارمة يخافه شيخ الخفراء، قد يغضب عليه، فتخر الجاموسة دون سبب، أو يقع الولد من على سطح الدار، أو تخونه بندقيته فلا يعرف المصير، أفسح المجال له بشيء من الخوف، مضى الشيخ باهي في طريقه، وشيخ الخفراء خلفه متوسلاً.

– أنا عبد المأمور يا مولانا، سامحني، العمدة طلبك حالاً، أولاد الحرام أخبروه بما حدث.

يجثو على ركبتيه، يقبل يد الشيخ

والنبي ما تغضب عليّ يا مولانا

يرد عليه الشيخ برحمة

– ارجع لسيدك، وستجدني أمامك إن شاء الله

أسرع شيخ الخفراء يقطع البلد جارياً كالملهوف ليخبر العمدة بجواب الشيخ، اقترب من ساحة الدوار، هدأ قليلاً، تغزو ملامحه الدهشة «بسم الله الرحمن الرحيم» كيف سبقني؟ لقد كنت أجري بآخر ما عندي من عزم، «العفو والسماح يا مولانا»، ينصت عن بعد إلى حوار الشيخ مع العمدة، يصل إليه الحوار من الشباك الصغير الضيق، خلف مندرة الدوار، العمدة كان هادئاً

جداً، لم يكن يحقق مع الشيخ، بل أجلسه مجلس المأمور، وأمر له بكوب الشاي بالليمون، قال إنه يريد أن يفهم لماذا فعل الشيخ ذلك، لم يرد عليه الشيخ، أمسك بكوب الشاي بالليمون الذي يحبه، رشف منه رشفة يتيمة ودلقه على السجادة، كاد يجن جنون العمدة، أشار له الشيخ كما يشير الأستاذ للتلميذ، فصمت العمدة وهدأ، قال له الشيخ إنما غضبت لأنك أخطأت ترجمة الإشارة، واعتبرتني أهينك، ماذا لو كنت رجلاً مريضاً لا أقوى على حمل الكوب الساخن؟! أعتقد وقتها لم تكن لتغضب هكذا؟ كان العمدة يفهم كلام الشيخ وإشاراته، ويجله كثيراً، عمدة بلدنا عصام بيه،عمدة بن عمدة، يفهم كل شيء، وحاصل على الحقوق، ويقرأ كثيراً في مجلسه تحت التوتة، جلس الشيخ يحدثه لساعات حول أشياء لم أفهمها، أتى بسيرة المنجي، وقال الشيخ إن ما فعله إشارة للناس كي لا يعتمدوا على (المنْجي) في حل مشكلاتهم، إن موت المنجي ليس الكارثة، قد يختفي ماله وهو حي فأين يذهبون؟ هاهو الثمر يملأ الترعة فهل يفهم الناس؟ المنجي نفسه مات أبوه عبد الناصر وتركه صغيراً، هل نسي الناس أنهم من قاموا بتربية المنجي ورعايته؟ لقد أنار الشيخ باهي عقل العمدة فناداني وقال لي «لا يتعرض أحد للشيخ باهي بأي سوء مهما فعل حتى ولو رأيتموه يحرق دوار العمدة نفسه» صدقوني لم أفهم شيئاً، ولكن الولد «صديق» ابني في السنة الأولى من كلية الآداب، يدرس الفلسفة، قال لي إن الشيخ باهي ليس مجرد ولي قريب من الله ونافذ الأمر، إنه عالم يفوق علمه أساتذة الجامعات، الولد صديق كان كثيراً ما يجلس إليه يناقش الشيخ فيما يدرسه، ولكني مازلت لا أفهم شيئاً، الولد

رضا عاد صوته الذي راح، قال إنه عندما سب الشيخ رأى ثوراً ضخماً يكاد يهاجمه بقرونه، كلنا نحب الشيخ باهي ونخاف منه، ولكنْ قليلون جداً من يعرفون سره، يتهيأ لي أن الولد «صديقاً» ابني منهم، لقد قال لي دون أن يعرف ما دار في دوار العمدة «الشيخ باهي أراد أن يحرق السفينة ويترككم في مواجهة البحر»، هل هي إشارة أن المنجي يموت؟ طلبت من ابني أن يوضح لي الأمور فأنا عجزت أن أفهم، قال لي إنه لا أحد يفهم ما يقصده الشيخ، كلنا نحاول الوصول، ولكن من يستطيع؟!

-٩-

«المستشفى»

أمام غرفة المنجي في المستشفى الاستثماري الضخم، عوالم متباينة جمعها شخص واحد، سندس الغازية تقف على بعد خطوتين من العمدة الوقور، وعمامتين كبيرتين، لشيخ البلد، وناجي عبد الستار جوكر القرية وأكبر سمسار أراضي وعضو مجلس الشعب عن الدائرة

وسيدة عجوز تجلس القرفصاء مسندة ظهرها إلى الجدار الأبيض اللامع الموازي لباب الغرفة، إنها نجية الغجرية، توشوش الودع وتجيد قراءة الكف، حتى ينضم إليهم عبدالرحيم البلطي وابنته حياة، تدخل حياة، لهفتها تسبقها، تطرق الباب، يأذن لها الطبيب بالدخول وحدها، بينما يقف أبوها مع الواقفين، الأسلاك والخراطيم كأنها تقيده في السرير، بمجرد

دخولها، شعر بها، كأنها رعشة نسيم سرت في جسده، فتح عينيه، نظر إليها في حنان، ملأ عينيه من ملامحها، تشربت وجهه، تحركت في حنو، نظرت إلى الطبيب، أفسح لها المجال، وكأنه أدرك السر، انصرف مغلقاً الباب خلفه، اقتربت من السرير، جلست حيث أشار لها، أمسك يدها، شعرت بارتعاشة خفيفة في أنامله، النبضات تسري من كفه إلى كفها تصل إلى قلبها، تعود بنبضاته، تتسرب من يدها إلى يده، تصل إلى قلبه ينتعش، المرض جعله أكثر حرية، إنه يستقبل الحياة كمن يدرك قيمتها بعد أن يهدده شبح الموت، هو الحب يا منجي، ابتسامة الروح للروح، ذوبان النبض في النبض، ارتشاف النور، هل سالت دموع حياة من عيوني، أم سالت دموعي من عيون حياة، اختلطت الروح بالروح، تحركت الخلجات، كرمال تتهيأ لاستقبال المطر، كانت حياة، مبتسمة باكية، حنونة قاسية

– تتزوجيني يا حياة؟

لم تستطع الرد، خرس لسانها، فاضت الدموع تروي الابتسامة الواسعة، طوال الوقت أنتظرك يا منجي، كتمثال شمع، أخذني عوض بلا روح، نزع فستاني ليلة الزفاف، غرس أصابعه في جسدي، ومضى يقبلني، وأنا كالرافضة لكل ما يحدث أطاوعه، أسلم له مساحات من الجسد يغزوها، ولكنه يفشل في غزو روحي، علاماته تبقى على جلدي، وعلامات المنجي تبقى في الروح، الجن يعود لي، الوسواس الملعون، بدا واثقاً هذه المرة من قدرته على اختراقي، مرة أخرى، دخلني، لم أعد أطيق عوض، أحسه عنيفاً، يزلزل جسدي بالتعب، ولا أشعر معه بمتعة، ألم ولا

متعة، هكذا كنت أتحمل وجبات العذاب اليومي، تلصصت عليه، رأيته يتناول الحبة الزرقاء، وبعض الفيتامينات، ليته يتناول المنوم ويغيب عني، هو أيضاً لم يعد يحبني، قال لي إنني باردة، وإنه يستحق من هي أفضل، فطلبت الطلاق، نظر لي بغيظ، وانصرف، قلقت العائلة حول المولود القادم، ذهبت للطبيب أخبرني أنني سليمة، وأنه يحتاج إلى تحاليله، عدت من عند الطبيب لأخبره أنني أنا المعيبة ولن أنجب أبداً، لا أدري لماذا فعلت ذلك، ولكنه طلقني، جريت كالمجنونة، أصرخ في الشارع حتى وصلت إلى بيت أبي، الجن يتناولني بوقاحة، اضطرني إلى الحمام، أخلعني ملابسي، الماء على جسدي، أم هو الذي يتحسسه، كرهت نفسي، وأخي، وأبي والمنجي، والدنيا كلها، خرجت من الحمام أنتفض، صراخ وكوابيس، ووسوسة، العذاب بعينه، أن تكون مسلوب الإرادة، الآن يطلب مني المنجي أن أقبل الزواج به، الجن يقيدني، يعقد على شفتي، أشير إليه بالموافقة، يغتاظ الجني، يحاول أن ينتقم مني، أقترب من المنجي، أحتمي به يمسح على وجهي بيمينه، الضوء يخرج منه كأنه النيون، أستريح كنهاية سباق طويل شاق، يدخل المأذون والشهود، أبي كان يعرف، والعمدة وحضرة العضو، سندس كان يبدو على وجهها اضطراب ما، لم أشغل بالي إلا بابتسامة المنجي الكبيرة، كأنه يودع الحياة بالحياة، يصارع الآلام بالنشوة، تنظر لي نجية الغجرية، كم أخبرتني ولم أكن أصدقها، لقد أصبح لي الآن، تقفز الفرحة من عيني كطيور تسعى إليها، لتحييها، ردت تحيتي لها بنظرة زجاجية، أشارت لي أن اقترب منها، همست في أذني، تغيرت ملامحي في انتظار الآتي.

-١٠-

سيد اللعبة

هنا.. في بيت عرفات الحافي انضم زائر جديد لجلسة القمارتية، إنه عوض الطيب الذي فارقته حياة لتتزوج المنجي، أما هو فبعدها شعر بالبرودة في روحه، وجرح عميق نازف ينز من كرامته، هل كانت طوال الوقت معه وتفكر في المنجي؟ أم أن المنجي أراد أن يعوضها عن نكبتها في زواجها؟ الشك يكاد يقتله بينما نظرته إلى كل النساء تبدلت، هذه هي المرأة تنام في حضنك وتصبح في حضن غيرك، ربما كان ما يهون عليه أنه هو الذي تركها، رماها من بيته أمام الناس بعدما رمى عليها اليمين، فلا حاجة له بامرأة بائسة، يقتحمها الوسواس، ويلعب بعقلها الجان، وتفسد عليه سريره، امرأة عقيم لا تنجب، وما ينبغي لمثله أن يحتفظ بأرض خراب، قاحلة لا تثمر ولا ترتوي من مياهه، ولكنه الظلم ظلمات يوم القيامة، ويظلم بصيرة

صاحبه فيصير كالأعمى لا يغنيه ضوء الشمس فيرى، ولا يجد من يخلصه من وهم الحيرة والتخبط، صار بعدها أكثر بؤساً، يخسر مرتبه الذي يجنيه من شركة المياه على جلسة القمار، يكسب القليل فيغريه المكسب فيخسر كل ما معه ويقترض، هذه هي الحياة!! تضن عليه بالحظ أم هو الذي ضن على قلبه بالنور؟ أصبح معتماً، يعشق الليل وشلة القمارتية، دوران الشيشة المحشوة بالحشيش!! لحظات الغياب والعم عرفات وحكاياته التي لا تنضب «يوم ما قامت المعركة الكبيرة بين عائلتي الطيب والحافي.. عارفين كان السبب إيه؟» انطفأ وجه عوض الطيب لا لأنه خسر خمسمائة جنيه حتى هذه اللحظة فالليلة طويلة ويمكنه التعويض، ولكن السبب الحقيقي أن أمه ست الدار كانت السبب الرئيسي في المعركة.. حينما كبت مياه الغسيل في الطريق فترنحت جاموسة دياب الحافي فخرت وأدركوها بالسكين لتذبح وتوزع على أهل القرية، كما هي العادة يتشارك الجميع في ثمنها تعويضاً للمنكوب، ولم يكفها ما حدث، بل أمطرت الرجل بوابل من الشتائم لمجرد أنه عاتبها بلهجة خشنة، لم يكظم الرجل غيظه ونسي تقاليده التي تربى عليها فهب يلقنها علقة ساخنة لولا أنها فاجأته بكعب حذائها البلاستيكي المسنون، فاضطر إلى أن يثني ذراعها وينطح رأسها في الجدار، لتبث سمومها في زوجها حينما عاد من الحقل فجرى سليم الطيب ومعه عصبة الشر ليتهجموا على ديار الحافي، وقامت معركة حامية أصاب فيها سليم رأس دياب بضربة قاصمة من نبوته، بينما تعجب طبيب الوحدة أن الرجل ما زال حياً بينما مخ رأسه قد بدا له وهو مازال يتمتم «شوف

شغلك يا دكتور خليني أقوم أخلص على أولاد الكلب»!! حينما وصل عرفات إلى هذا الجزء من الحكاية كان الجميع يتخبطون في بعضهم من الضحك، ونفض الجميع ما بيديه من أوراق اللعب واستلقوا على أقفيتهم، وقال عبد العال حفني «كفاية لعب يا جماعه ونقضي الليلة نسمع العم عرفات» بينما تحول وجه عوض إلى الفحم وشعر بأن الليلة من أولها تسير ضده، ربما عرفات هو الذي دبرها كذلك، استبد الغيظ بعوض فمضى يقطع أوراق اللعب وسط توسلات أحمد الصبي ألا يفعل، إنه سرق هذه الكوتشينة من وراء أبيه ولو علم بذلك لقطع خبره، بينما كان عوض يقطع مع أوراق اللعب صفحات بائسة من حياته، تراقصت أمام عينيه في تحد موجع ليرى في البنت وجه حياة وفي الشايب وجه عرفات والولد.. آه من الولد إنه المنجي، سيد اللعبة الذي يربح دائماً تحت أي ظروف!

-11-

«السيد البلطي»

هل هذه هي إيطاليا؟ الكل يعتقد أنني سافرت عبر البحر، لا يعرفون الحقيقة، السيد عبد الرحيم البلطي ينام فوق السطوح في غرفة يتيمة بمبنى متهالك في شارع السيدة صبيحة المتفرع من شارع زين العابدين السيدة زينب، هل أعود إلى البلد، لن يعرفوني، أنا لم أعد أعرف نفسي، لست أول من دخل السجن، الكثيرون دخلوا السجون وخرجوا منها رجالاً، ثابتين على مواقفهم، لم يحلقوا ذقونهم مثلي، أبيع ذهب أمي وحلق حياة، وأحصل على الباقي من المنجي الذي طالما رأيت أمواله حراماً، أتى بها من جدائل النسوة، ولكني لست ناكراً للجميل، أعرف أنه صاحب فضل كبير علي وعلى أبي حتى زواج أختي حياة هو من تكفل بكل شيء، كان يجب علي أن أسافر كي أجيء بالفلوس، الفلوس هي التي تشتري وجودك، كلنا هياكل

من دونها، أتعبوني في الحديث عن القيمة والسعر، ليس المهم أن يكون لك قيمة، المهم أن يكون لك سعر، وأنا عشت حياتي بلا سعر، حتى عندما قبضوا عليّ، كنت رخيصاً جداً، ومهاناً، هل كانت تهمتي أنني أصلي؟ أنني ألبس جلباباً أبيض قصيراً وأعفي لحيتي؟ أم تهمتي الحقيقية أنني بلا سعر، أخرج من السجن يقتلني جوع الأحلام، اصطادني عنكبوت مد خيوطه ليمص ذهب أمي وحلق حياة وآخر ما تبقى من مياه وجهي أمام المنجي! ليس مهماً النجاح في الكلية، ولا أي قيمة علمها لي الشيوخ، المهم هو السعر، سأسافر إيطاليا وهناك سأفعل أي شيء من أجل الفلوس، وأعود كالمنجي، ولكني لن أكون مثله أفرط في أموالي من أجل الفقراء الأغبياء، سأجعلها حصناً لي من شرورهم وعيونهم، وأجعل منها جبلاً آوي إليه فيعصمني من الفقر والهم والبلاء، وليعصف الطوفان بكل من ظلمني، هكذا كنت أمني نفسي في مركب الصيد الذي تم تهريبنا فيه، العتمة، وشيش الماء، حركة المجداف، السكون، وجه صابرين في صفحة الماء يتشكل، الحب الذي ينبت مع الإحباط والفشل يكون بطعم الانكسار، غير الذي ينبت مع النجاح، ولكن صابرين لم تكن حباً كالذي يحكون عنه، أو يحاولون تفسيره في الأغاني، صابرين هي الوجه المشرق، الدافئة الصوت، الهادئة الملامح، الخجولة، يحمر وجهها فيعزف على أوتار روحي، موسيقى بطعم التفاح، ولون النبيذ، لا تندهشوا من ذكري للنبيذ، فلم أعد نفس الشخص الذي تعرفونه، إن غضب البحر على المركب الصغير، أطاح بأحلامي وأحلام من معي، أعادنا إلى الوطن الذي لفظنا من جوفه، لا يجب العودة حيث

تلومني أمي بضياع ذهبها وحياة بضياع الحلق، والمنجي بابتسامته الطيبة التي تحتويني، ولكنها في ذات الوقت تشعرني بالخجل من نفسي، فإلى متى سأظل كذلك؟ أعتمد عليهم في كل شيء، لن أعود، هنا في القاهرة بدأت حياة أخرى، وتعرفت إلى شباب مثلي على مقهى البورصة، الغضب يبث روحه في كل شيء، والإحباط يذكي هذه الروح، إنها القنبلة التي ستنفجر يوماً ما، جذبوني لحياتهم، عرفت مذاق الخمر، ولعنة الحرية في فتيات أرهقهن اليأس من الارتباط، المجتمع يلعب لعبته في صنع الدوامة ويلومنا على الغرق؟ وليس دائماً ما نجد المنجي!! السيد عبد الرحيم البلطي، نعم يا حضرة الباشا، نفس الشخص الذي قبضتم عليه على أنه متطرف ديني، تقبضون عليه بتهمة انضمامه لخلية يسارية مناهضة للنظام، نعم يا سيادة الباشا أنا هو، السيد البلطي، ومثلي كثيرون، الوداع يا أمي، الوداع يا حياة، الوداع يا صابرين، النزف يملأ الزنزانة، كلمة واحدة حرص السيد على كتابتها على حائط السجن بنزف شرايينه، كلمة واحدة، ظنها الجميع حلاً للغز ما أو اختزالاً لسر أكبر»

.... «ال م ن ج ي»

- ١٢ -

«الرسائل»

لا أدري ما الذي أودعه الله في صدري، أشعر دائماً بما يحدث، أتقلب على جمر المعرفة، يا ويلك يا حياة، قلبك تتعالى صرخاته، يتخبط في جدران الصدر، قوية دقاته، تكاد تكون مسموعة، أنا وبجواري المنجي على الطائرة الخاصة، لم أكن أحسب أن المنجي يعرف أناساً واصلين إلى هذه الدرجة، السفر إلى لندن من أجل عملية خطيرة من خلال طيارة خاصة، الرعاية والأهمية فوق ما يمكن أن تتخيله فتاة مثلي، لأول مرة في حياتها ترى مطاراً، تركب طائرة، وتسافر في الهواء.

لماذا يصرخ قلبك يا حياة، صرخاته الموجعة المبهمة، بلا مبرر، ينقبض انقباضاته كأن الشر كله يحدث الآن، هل سيموت المنجي؟ أنتظر كل هذا الوقت كي أتزوجه وحينما أتزوجه يزف

إلى الموت قبل أن يزف إلي، يده في يدي، نظراته كأنها تقرأ لهفتي وحيرتي وعذابي، يشعر بانقباضات صدري، يرفع يديه بوهن، يلامس وجهي، أطمئن، نبضاته تبث السكينة إلى ملامحي، تتمشى يده على رقبتي، تسقط بوهن على صدري حتى تستقر في كفي تلاعب أناملي، أغمض عيني على دمعة حارة، قلبي تتضح دقاته المبهمة تبث الخطر في دفقات سريعة، يظهر اسمه على شاشة الروح «السيد البلطي»، أخي، كل هذا الانقباض ليس للمنجي، ولا لعملية القلب المفتوح، كل هذا للولد المشاغب، صاحب الكبد المرقعة، الشيخ الملتحي، طريد الحكومة، المهاجر إلى ما وراء البحر أتحسس موضع الحلق في أذني، الحلق الجديد الذي اشتراه لي المنجي، يشكني الحلق، خيط دم ينزل من أذني على وجهي، قطرة من الدم تسقط في كف المنجي، تدور عيناه كمن هو في دوامة، يغيب عن الوعي، يذكر اسمه كمن يحدث نفسه «السيد»، ينخلع قلبي، أتذكر كلمات نجية العجوز في أذني، «لا تفرحي بحلق الدنيا فقد تنزف أذنك منه»، يا وجعي يا سيد، ينادون علينا بربط الأحزمة، الطائرة ستهبط، يفيق المنجي، يطمئن قلبي، ترتاح هواجسي، يبتسم لي، ابتسامة المنجي كأنها البشارة، أو الرضا، الفارق شاسع بين البشارة والرضا، فالبشارة هي الخلاص، والرضا قد يكون في الصبر على البلاء، إنها الرسائل دائماً تصلني في القلب على رغم عجزي عن تفسيرها.

-١٣-

«النزف»

هل كانا ينزفان في نفس الوقت دون أن يشعر أحدهما بالآخر، أم شعرت حياة أولاً بنزف أخيها فسال الدم من موضع الحلق، كيف اختلط النزفان؟، قطرة من دم حياة سقطت في كف المنجي، تحولت القطرة إلى بقعة دم كبيرة ارتسمت على شاشة المنجي، دارت العينان في دوامة الدم، صورة السيد مخضبة بالدماء، لم يتحمل المنجي المشهد، غاب عن الدنيا، دخل عالم الأرواح، السندس الأخضر يحتل كل مساحات الرؤية، بمنتهى السرعة كان الدخول إلى خنادق الغياب، الرؤيا المزعجة، السيد وهو يقطع شرايينه، يكتب بنزفها على جدار السجن، حروف اسمه، يرتمي جثة هامدة، يغمض عينيه على دمعة مقهورة، تتغير كيمياء الدم في جسد المنجي مع المشهد، تثور الأعضاء، تنادي خلايا المنجي في عالم الأرواح، تبحث عن منقذ لروح السيد المنتفضة، الحبس

انفرادي، العسكري السجان ينام على الكرسي يستفزه عر بعد صوت حلايا المنجي، تأتيه النبضات في المنام توقظه، يفتح عينيه كمن يرى الحقيقة، قلبه تتصاعد فيه الإشارات دون أن يعيها، يسرع على الزنزانة، يرى خيط الدم على الأرض والسيد مازال ينتفض جسده كطير مذبوح، ينزعج العسكري، يستغيث، تنقلب الدنيا، بينما هناك بعيداً كان المنجي مغمضاً عينيه، قابضاً على قطرة الدم، يفتح كفه، ترتاح حياة قليلاً، فريق الإسعاف يقوم بمهمته مع السيد، تستجيب الحياة، وقت هبوط الطائرة، يفتح المنجي عينيه مبتسماً لحياة، بينما يرتاح قلبها لابتسامته، تشعر وكأن حملاً ثقيلاً خف من على قلبها، لا تعرف ما يحدث، ولكن العجيب أنها تتفاعل معه كأنها تعيه تماماً.

كان الشيخ باهي يرسم على الأرض بعصاه دائرة كبيرة، ما يشبه الجلوكوز المعلق وسرير العمليات، ثم رسم سريراً آخر، سأله مريدوه، هذا للمنجي فلمن السرير الآخر، لم يجبهم، بان الغضب في عينيه فازداد قلقهم، كانت حسنات أم السيد تجري على جسر الترعة الموازي، عبرت جذع النخلة الذي يصل بين جسري الترعة، عبرته جارية، اتجهت إلى الشيخ باهي مباشرة، أشار إلى مريديه فأفسحوا لها، رسم لها دائرة على الأرض:

– اجلسي هنا يا بنت يا حسنات

– ابني السيد جرى له إيه يا شيخ باهي؟

لم يرد عليها، كأنه كان يعرف أنها رأت في المنام ما أزعجها على السيد، أشار بعينه إلى الدائرة، أدركت إصراره، خشيت أن

تعصي الأمر، جلست في الدائرة، هدأت، استراحت ملامحها، كانت عيناها كأنها ترى شيئاً ما تتابعه في الهواء، نعم إنه السيد، ترى وجهه، ينام على سريره، بدأت تدب فيه الروح، ابتسمت لابتسامته، كانت تريد أن تراه أكثر، أن تستبين المكان الذي ينام فيه، لولا أن أشار الشيخ باهي بعصاته فقطع الإرسال:

– شوفتيه يابنت؟

انكبت على يديه تقبلها، مشت كالمذهولة، تتبعها العيون، يتساءلون عما حدث، عبرت جذع النخلة إلى الجسر، تمشي بينما تنطبع قدماها الصغيرتان على الأرض الترابية، يا ويلك يا حسنات، كل ما قلته على الناس يطلع على جلدك الآن، وكأنه دين واجب السداد، كم حذرك زوجك الطيب من الخوض في أعراض الناس، كله بسبب هذا الملعون، تشد لسانها، حتى كأنه يريد أن ينخلع، خطوات وتصل إلى البيت، انتظرها على المصطبة النسوة لتحكي لهن، عن الشيخ باهي المبروك الذي ضرب بعصاه في الهواء، فجعله كشاشة التلفزيون، رأت فيها ابنها، وهو في إيطاليا، هل كان حقاً في إيطاليا، لم تر في الصورة سوى السيد نائماً على السرير، ثم إنها لا تعرف كيف تميز بين سرير في منزل إيطالي وسرير في مستشفى القصر العيني، لكنها لامت نفسها أمامهن، إنها لم تفعل شيئاً في حياتها يستوجب بعد أبنائها عنها، سوى الثرثرة معهن في أخبار الناس، مصمصن شفاههن، لملمن أنفسهن، وتفرقن، بينما جلست وحيدة، تشرد بخيالها في الهواء الذي تحول إلى شاشة تلفزيونية، بعصا الشيخ باهي.

-١٤-

«صابرين»

«صابرين هي الوجه المشرق، الدافئة الصوت، الهادئة الملامح، الخجولة، يحمر وجهها فيعزف على أوتار روحي، موسيقى بطعم التفاح، ولون النبيذ».

هذا ما قاله السيد البلطي عن حبيبته صابرين، أما صابرين فهي تعتقد أنه من حق أي أنثى أن ترتكب حماقة واحدة على الأقل في حياتها، السيد البلطي هو حماقتي الوحيدة، وفتاة مثلي يمكن أن تنسفها حماقة واحدة، فتاة أشبه بالقشة في عاصفة الصحراء، والخطأ قد يكلفها الكثير، لا بد أن تتمتع بالقدر الكافي من المواربة والمرونة، حتى تستقر أوضاعها، ربما يكون الضياع أمراً حتمياً لمن في ظروفها، ولكنها أرادت ألا تضيع، سافر أبوها إلى تركيا تاركاً البنت والأم تعانيان سوء

الأوضاع في الإسكندرية، اكتفى بعد أن فرجها ربنا عليه أن يرسل الأموال، يعتقد أنه يتغرب من أجلها، ليته يعرف أنه أفضل من أن يعيش الفرد لأحبابه أن يعيش معهم، الأم تبدو أصغر من البنت، مهتمة للغاية بمظهرها، هي والبنت متواطئتان من قديم، حول طريقة الحياة من عرق الحرام، البنت ترى الرجال يدخلون البيت، تغلق على نفسها باب حجرتها، تضع سماعة الوكمان في أذنها وتتوه مع الأغاني عن الأصوات النتنة، علمتها أمها أن الرجال مثل الذباب دائماً يبحثون عن موضع الخبث، لا ترضيهم الأنثى الطاهرة، ولا يملأ أعينهم إلا ما يملأ أعين الذباب، الزواج له مقاييس مختلفة، أما المتعة فمرتبطة عندهم بالنجاسة، معظم الرجال الذين يجيئون هنا عندهم أزمات وعقد، ولا بد أن يخرجوا مبسوطين، وكل واحد منهم عنده إحساس أنه أبو زيد الهلالي، وأنه كان مثل الثور على السرير، كانت تحصنها، تقول لها، ألا تضعف أبداً، البنت في هذا الزمن سلعة، كلما كانت داخل الفاترينة بعيدة عن أعين المتطفلين، غلا سعرها، والبضاعة المباعة لا ترد ولا تستبدل، قالت لها إن الرجل الضعيف يكشف نفسه، بابتسامة باهتة، ضغطة أصابع عند ملامسة اليد، أو احتكاك شبه متعمد، المرأة الذكية لا بد أن تعرف أسلحتها، تقود المعركة بوعي، لتحصل على ما تريد في النهاية، ترسم الخجل، تتصنع الهدوء، الرقة، العذوبة، ولكنها في ذات الوقت لا بد أن تتمكن من المراوغة، لا يمكن حتى للاعب محترف أن يحرز هدفاً إلا بالمراوغة، لو يعرف الرجال مدى سخريتي منهم عندما يكشفون عوراتهم أمامي، هذا هو حضرة المحترم، السياسي اللامع، المثقف الكبير، الفنان الراقي، كلهم

يتعرون أمامي، عراهم ضعفهم، لا ترضيهم إلا شهوة الكلاب في اللعق والتمسح، ذيولهم النجسة دائماً ملتوية، لو علقت فيها قوالب الشرف والفضيلة جميعها، وأنا لا بد أن أعيش، فواتير الكهرباء، البقال، التليفون، الملابس، الكتب الجامعية، بنزين السيارة، اشتراك القنوات الفضائية، فواتير كلها لا بد أن تدفع، من أجل أن أعيش أنا وصابرين ...

هذا كلام أمي، أما أنا فأشعر بالقرف الشديد، من روائحهم التي تملأ البيت، لم أكن أمثل الخجل حينما قابلت السيد، فعلاً كانت المرة الأولى التي يفاجئني رجل بمشاعره، مهما كانت المعرفة تبقى التجربة هي المحك، الخبرة لا تنفي البكارة، هل كنت أستعير خبرة أمي في التعامل، فاصطنع الحياء، وأجيد المراوغة، أم كنت أتصرف بتلقائيتي في التجربة؟ هل كانت بكارتي هي التي اصطادت سيد أم مهارتي؟..هو الذي اصطادني، بكلامه الفضفاض، عيونه اللامعة التي تخترقني، هو الذي حرك الخلايا، أشعل النبض، ضغط على يدي ولم أشعر بضعفه كما أخبرتني أمي، شعرت بقوته، الخشونة والنعومة، احتكاك كاحتكاك السحاب السالب بالسحاب الموجب، يهطل المطر، أشعر به يسيل في ودياني، ينهال من أعلى الهضاب، يجد له مكاناً بين صخوري، يفجرها، يجتاحني، يسلمني إلى الشاور جيل، ومراودة النعومة للنعومة، أخرج نصف مبتلة، أمارس هدوئي باسترخاء كأنه الحلم في ظلام الغرفة، مسلمة تياراتي الباردة لضوء القمر المشاغب يتسلل من وراء النافذة الناعمة ليلاعب قميصي الشيفون الأزرق، أغني الأغنية التي يحبها السيد في

هدوء، أشعر بأن نبراتي أحلى من فيروز «أنا لحبيبي وحبيبي إلي....»، أنام على صوت السيد في التليفون، كلامه كأنه السحر يخدر أعصابي، يبللني بالندى، يقطف من أشجار روحي العالية لذة البوح، هو الحب يا أمي، بكل خبراتك لا تستطيعين أن تلمسيه، هو في نظرك حماقة، وضعف، وفي نظري هو الحياة، ولكنها لا تدوم لأحد، ولو دامت لتمنيت أن تدوم لي وللسيد، كنت سأكون جاريته، أمرني بالنقاب فلبسته دون نقاش، أمي كانت تضرب كفاً بكف، تعاملني كأنني خرقاء.

قبضوا عليه، لم يجدوا غير الشخص الوحيد الذي شعرت فيه بكرامتي ليقبضوا عليه، كان منهكاً جداً عند خروجه من السجن، سلم عليّ، كانت يداه ذابلتين، أشعر في لمساته بالوهن وقلة الحيلة، عندما ترى الواحدة منا خيبة الأمل في فارسها ينكسر حلمها، تضيع الاتجاهات في عيونها، وأنا.. فارسي قرر التخلي عن دور البطولة، حلمي قرر أن يهاجر مني، باع ذهب أمه وحلق حياة ليركب البحر، الآن أدركت كم هو حماقة هذا الحب، إنه الشرعية التي نمنحها لضعفنا، إنه الصورة المثالية للخطيئة، وحينما وجدت الخطيئة وجدت التضحية، السقوط في بئر الوحل يجعلك ترى كم هي السماء نقية وبعيدة، تنفلت يداه من يدي، تمتزج دمعتي بمرارته وعجزه، يده كانت أملي في النجاة، الآن أنا وحدي أغوص في بحر الرمال، والرمال ناعمة جداً كلما قاومتها غصت أكثر، نعم هذه هي صابرين، الوجه المشرق الدافئة الصوت، الهادئة الملامح، الخجولة، التي يحمر وجهها فيعزف على أوتار روحه، موسيقى بطعم التفاح،ولون الدم.

-١٥-

«القلب المفتوح»

على سرير العمليات، تختصر التجارب لفلاشات سريعة، صور الأصدقاء والأحبة، من قضى نحبه منهم والذي ينتظر، الموت له طعم البنج، كأنه دوار البحر، في سفينة تتقاذفها الأمواج من كل جانب، إلى أين تهرب، الأمر أشبه بقنبلة موقوتة، في الوقت المحدد تنفجر الروح، ويتجمد الجسد، دمعات حياة أحس بها مع شكة سن الحقنة، يحاورني الطبيب، ليتأكد أنني غبت عن الوعي، دخلت إلى المحنة، لا أدري، ماذا حدث، لقد رأيت روحي تخرج مني، تجري بسرعة رهيبة في الخنادق البيض، أشعر بأن روحي تحوم حول الجسد، وجوه الأطباء يشتعل فيها القلق، العيون تعلقت بالجهاز، هل أنا مت، يحاولون معي، تهتز روحي، تعود مرة أخرى بسرعة عبر الخنادق البيض يرتعد الجسد، يمر الوقت كأنه العدم، أفيق، ملامح حياة هي أول ما

أراه، أستعيدها، لك عمر يا منجي، أبوك سقط من على السقالة بنفس المرض، أما أنت فتسافر إلى لندن في طائرة خاصة، ليزرعوا لك شرايين بديلة، أي قلب أخذوا منه الشرايين، نابضة وحية ليضعوها في قلبك، ربما كان عاملاً فقيراً سقط من على السقالة، هل مات أحدهم من أجل أن تعيش؟ الأعمار بيد الله، الأطباء حكموا عليه بالموت الإكلينيكي لتعيش أنت، فتمر روحك عبر خنادق الموت، وتعود قبل أن تستقر في البرزخ، نجحوا في منحك الشرايين، ولكنه لا يمنح الحياة إلا الله، ابتسمت حياة فكانت الشرايين تزداد اتساعاً، ينساب الدم متدفقاً في حنو، الآن تعود لحياة وتعود لك الحياة، ستبتسم لك الدنيا يا منجي، أيام وتعود إلى أبيس، بقلب جديد، يستقبلونك بالجريد وطبلة المسحراتي «عاد المنجي عاد.. نور البلاد»، ستفيض عليهم من خيرك، تغمرهم بحنانك، وستسكن مع حياة البيت الذي طالما انتظرها كملكة، ما أجمل الأحلام يا منجي، دائماً نرى أحلامنا ترقص أمامنا في المستقبل، تغرينا بانقضاء الأيام بسرعة، ولكنها الخدعة، الحيلة، تستعملنا الحياة لإحداث مفاجآتها، قد تتحول المسارات، تتبدل الأدوار، تنفلت المسافات، وتضيق المساحة، أو تتسع، هل الضيق والاتساع يحدث في نفس اللحظة، نصيب معلوم ونسبة ثابتة؟ كلما اتسعت مساحتك، ضاقت مساحة غيرك، فكيف للمنجي أن تتسع مساحات الناس لديه كلما اتسعت مساحات الخير عنده، إنه التداخل بين مصالحهم ومصالحه، بين أقدارهم وقدره، ولأنهم يحبون الأساطير كحبهم في البقاء، صنعوا أسطورته، ولم يحسموها، تتداخل الحكايات، فيصير مخاوي جان، أو ولياً صاحب كرامة، أو نصف إله، لا

يهم، المهم أنهم في حاجة إلى الأسطورة، إلى بطل يلتفون حوله، ليس المهم أصله أو الأيديولوجيا التي وراءه أو هو وراءها، المهم أن يتبنى همومهم، أحلامهم، يعرفون أن هناك من يلجؤون إليه، فيفكر معهم أو لهم، يحل مشكلاتهم، الصدفة وحدها تختار الرجل، بلا مقاييس معروفة، فجأة يصير «المنجي»، «الناصر»، «القائد»، «الملهم»، «الفرعون»، إنهم يصنعون الفرعون ويقدسونه، كالذي يصنع الصنم ويعبده، لا بد أن يكون هناك خارق ما، مصارع يقهر الثيران فينال الإعجاب والهيبة معاً، أو فتوة يفرض قانونه عليهم، لهذا يلجأ الإنسان إلى السحر، يريد أن يكون خارقاً، لا بد أن تتحقق قوانين الطبيعة، الغرائز كالبذور تبحث عن أرضها الخصبة، العنف غريزة، والخوف والنفاق والمراوغة والخديعة غريزة تعرفها الحيوانات كحيل دفاعية للبقاء، ولا بد أن تتحقق في الحيوان الآدمي، لا بد أن يوجد من يخاف منه، من ينافقه، لتدور الطبيعة دورتها، فهل تنهار أسطورة المنجي الذي لا يتزوج لأنه مخاوي جان فيتزوج حياة، ومنجي الذي له علاقات كبيرة فتنقلب عليه علاقاته، ومنجي الذي يحل المشكلات بماله فينفد المال، أو تتعطل صفة الكرم، لقد أصبح الناس ينتظرون انهيار الأسطورة، بل ويحبون أن يشمتوا فيها، انهار قلب المنجي، وتزوج البنت حياة، فهل هي بداية المهزلة، الشيخ باهي حذرهم، كان يجب أن يأخذوا حذرهم، زمن المنجي ولى، ولن يجد عند عودته من يتحمس له، لن ترن طبلة المسحراتي ولن يردد الأطفال النشيد، ستظل القرية في صمتها الجنائزي، حيث تمر سيارة المنجي الفارهة، يلمحون من خلال

زجاج السيارة النصف معتم حياة بنت البلطي وهي تضع رأس المنجي في صدرها، بينما تنتظر القرية لحظات من العتمة تغتالها، لا يعرف المنجي ما حدث في غيابه، ولا تعرف القرية ما تغير في المنجي، ولكن الأسطورة انهارت، وما أسوأ الأيام التي يمكن أن يعيشها البشر حينما تنهار أسطورتهم.

- ١٦ -

«التغير»

كل شيء يتغير، في هذه الحياة، لا شيء ثابتُ في المطلق، وكيف يمكننا أن نتصور معنى الثبات والكون كله في حالة حركة، الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس، والشمس تدور حولها الكواكب، وتدور هي حول مركزها، وهي تجري في الفضاء كما تدور حول مركز المجرة، كل شيء يتحرك، ليس هناك من نقطة واحدة ساكنة في الكون، حتى ونحن ثابتون وقوفاً أو قعوداً أو رقوداً تتحرك الرئتان صعوداً وهبوطاً، والقلب لا يكف عن الحركة إلا بالموت، الحركة تغير شكل الأرض والناس، لا تندهش إذا مرت الأيام فوجدت البحر المتوسط أصبح بحيرة أو وجدت الغرب ملتحماً في الشرق بلا مساحات أو فواصل، الجيولوجيون يمكنهم أن يتوقعوا ذلك على المدى الطويل بالقياس إلى حركة الأرض، أما نحن فلا يمكن لأي بشر

فينا أن يتنبأ بحركته هو أو أي بشر آخر مهما كان دارساً لطبعه، واعياً لمحيطه، أحلامه، ردود أفعاله، الأمر معقد جداً، وغير قابل للتنبؤ، فرجل الدين الصالح، صاحب اللحية البيضاء، والجلباب الأبيض القصير، الخجول، قد تأخذه لعبة الحركة والتغير، فتجده يرقص مع فتاة مراهقة وهو يسكب الخمور المعتقة على الأرض، هكذا كان الخوف من الله ومن سنن التبدل في نبرة الشيوخ الأجلاء وهم يتوسلون لله أن يثبتهم على الحق «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»، ثم يتلون قوله تعالى «يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ»، هكذا كان السيد عبد الرحيم البلطي، يتغير كموجات الراديو عند العبث بالمؤشر، كالضغط على أحد الأزرار وأنت تشاهد قناة سلفية، فتجد نفسك في عالم راقص، الخمور تنسكب على الأرض في ليلة رأس السنة، ومن الذي يقف على البار، السيد البلطي، يتحدث بكل لغة، ليجمع في سلته العملات من كل لون، ولا ينسى أن يحجز في جيبه ما يقدر عليه، لأن الفندق يقاسمه في الحصيلة.

هنا لا أفكار سلفية، ولا توجهات يسارية، هنا قانون واحد يجمع الجميع، اللذة في مقابل العملة، الخدمة في مقابل البقشيش، على البار تشاهد كيف تلعب الخمر بالعقول، الأنواع المختلفة، كل نوع له لون وتأثير، وطباخ السم هنا لا يجب أن يذوقه، يجب أن يكون متيقظاً، وإن كان لا بد فسيجارة حشيش، يشم رائحتها الأجنبي فيطلب الصنف، هنا في شرم الشيخ حياة

أخرى وعالم آخر، هنا لا مكان للعنف والإرهاب، ولا المذهبية، هنا العالم البشري يذوب، يصنع قوانينه الخاصة، وهنا السيد البلطي كما لم تشاهده من قبل، ارتسمت عضلاته في القميص الضيق، يرقص مع الموسيقى الصاخبة، واقفاً على البار، تغازله الفتاة الإيطالية، بعينيها يلمع بريق اللذة، تهمس له برقم غرفتها،..........................، الضوء خافت جداً، بحيث يمكنك القول إنه لا ضوء ولا ظلام، كان الظلام يغطي جسمها الإيطالي الغارق في الندى، بينما يفضح الضوء يديه وهي تعد ورقات اليورو المبتلة، ضحكات ساخرة تنطق بالحسرة، لقد بعت ذهب أمك وحلق حياة لتسافر إيطاليا، فجاءت إليك إيطاليا بعملاتها هنا، منطق البيع والشراء واحد، يجب أن تملك شيئاً لتبيعه، وإذا لم تكن تملك إلا جسدك فقد تضطرك الظروف بيع كلية أو نخاع، هنا تبيع عرقك يا سيد للإيطالية، ربما تبحث في جيناتك عن الذي جذب جدها أنطونيو إلى هذه الأرض، عنفوانك الفرعوني، ستحكي لهم عندما تعود إلى إيطاليا عن الهرم، والنيل، وآثار الفراعين، وروعة الطبيعة في شرم، وعنفوان السيد البلطي على السرير، وسيأتون على اسمك، ويضعونك سراً في برامجهم السياحية، رجل البار، هل كنت تفكر في الحب وأنت تبيع عرقك المحرم، هل كانت صابرين في خيالك، هل كان صوتها وهو يغني يتردد في روحك، أم كلمات اليساريين عن العدالة، لا يمكن التنبؤ بما كان يفكر فيه السيد وقتها، فربما كان يفكر وقتها في كلام الشيخ عن الفساد الذي يملأ البر والبحر، وعن دوره في تغيير المنكر حتى ولو زهقت روحه، بيعوا أجسادكم وأرواحكم لله، «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم

وأموالهم بأن لهم الجنة.....»، وأنت تبيع نفسك لإيطالية من أجل اليورو، ربما كان يفكر في المنجي الذي اكتسب مكانه ومكانته من جدائل النساء، فليذهب الجميع للجحيم، لو كانت هناك حقيقة واحدة ثابتة وقوية ما ضيعني الزيف، دائماً كان يرى كما يرى النائم عصا موسى وهي تتحول إلى ثعبان كبير لتلقف ما صنعه السحرة من ثعابين مزيفة، هذه هي الحقيقة، مهما سحر الزيف أعين الناس لا بد أن تظهر ليزهق الباطل ويعم السلام، يبدو أنه ليس أهالي القرية وحدهم من يبحثون عن منجي.

-١٧-

«الفـــــراغ»

هـل كـانت الأم مـعـهـا حـق، أم أن فشـل نـظـريـة لا يـعـنـي بـالضرورة نجاح الأخرى، فشلت نظرية صابرين في الحب، ضاع السيد وتركها وحدها كأرجوحة تم جذبها إلى آخر نقطة، هل يمكنكم أن تتصوروا معنى الاتزان في وضع كهذا، تموء القطط في الشوارع، مواءها في موسم التزاوج، بينما تدخل صابرين إلى بوابة العمارة، تلقي نظرة خاطفة على الشارع الهادئ، تقف عند باب الشقة دقيقة تفكر، ربما يكون أحدهم بالداخل ولم ينصرف بعد، ما كان لها أن تتأخر لهذا الوقت خارج البيت، العودة مبكراً تسمح لها بالدخول إلى غرفتها والتحصن مما يمكن أن يحدث، تحسم ترددها، تفتح الشقة، تدلف بسرعة، باب غرفة نوم الأم نصف مفتوح، أصوات صراخ اللذة، تعلو، تقترب البنت، لترى المشـهـد، تـغـمض عـيـنـيـهـا، مـزيـج من الـتـقـزز، الـغـريـزة، الـغـيرة،

الجحيم، هل يمكن أن يشتعل البيت الآن، لحظتها أدركت لماذا سيعذب الله الناس بالنار، إنها هي الوحيدة التي تزيل الخبث، كانت تعرف طوال الوقت ما تفعله أمها، ولكنها الآن ترى، الرؤية هي المعرفة، والمعرفة هي بوابة التحول، تبدأ الآن في قطع ورقة السيد البلطي من سجل روحها، والبحث عن البديل، عندما تسكب المياه من الزجاجة يملؤها الهواء، وعندما تملؤها تتحرك الفقاعات معلنة خروج الهواء مرة أخرى، لا معنى للفراغ، شيء يحل محل شيء، حب يحل محل كره، نجاح محل فشل، إصلاح محل فساد، أو العكس، تماماً مثل الزجاجة الفارغة، عفواً المملوءة بالهواء، تخلع الحجاب، وتعود إلى الكلية، ناظرة حولها مفتشة عن البديل، قالت لها أمها إن الرجال مثل الفساتين وإن كل بنت يجب أن تكون لديها شماعة تعلق عليها كل ما أعجبها وغلا ثمنه، حتى يمكنها في النهاية اختيار ما تلبسه، وغالباً ما تلبس المرأة فستاناً وعينها على آخر لم تستطع الوصول إليه، المرأة الذكية وحدها من تستطيع الوصول إلى الفستان المناسب، هل الجامعة هي الأتيليه المناسب لاختيار الفستان الجديد، تراه في أعين الطالبات الفارس الأول، هشام رمزي، المعيد الشاب، ذو العيون الثاقبة الحازمة، والابتسامة الصافية الخلابة، كيف لم يلفت نظرها إلا الآن، صحيح الحب أعمى، لفظها كمركب ضائع على شواطئ السيد الناعمة الرمال، احتمالية النجاة في البحر أكبر بكثير من احتمالية الخلاص من الغوص في الرمال الناعمة، ولكنها لم تمت بعد، نعم غاصت وتنفست رمال المعاناة، ولكنها مثل القطط، فقدت روحاً واحدة، ولكنها تملك سبع أرواح، يمكنها الآن، أن تعيش بروح جديدة،وقلب جديد.

الثقة التي تملؤه وهو يتحدث إليهم في السيكشن، نبرة الصوت الهادئة وهو يحصر الحضور والغياب، الفكاهة المحسوبة، نموذج لشاب مثالي، سيحصل على الماجستير والدكتوراه، ويكون الفتى الأول، كيف تكون المقارنة بينه وبين السيد؟، ما زلت أذكر السيد، لا يمكن للواحدة أن تنسى بسهولة رجلها الأول، يظل محفوراً في الذاكرة، والذي يأتي بعده يكون في حالة منافسة ومقارنة معه، كلعبة العملة تتأرجح صورتا السيد وهشام داخلي، أتحرك بعد انتهاء السيكشن، أحتال على هشام ليشرح لي ما لم أفهمه، بينما كنت أحاول أن ألفت نظره إلى أنوثتي، هل تجاهل صدري الذي اندلق وأنا أنحني برفق لأقترب منه لأسمع ما يقول، أم أدرك أن سقوط الكشكول من يدي كان حيلة، فرفض أن ينزل إليه تركني أنثني بينما يختلس النظرات إلى ساقي النصف عارية، لم يحمر وجهه، لم يتلعثم صوته، مد يده يسلم علي، دون أن يضغط على يدي، الرجال مختلفون يا أمي، السيد مختلف عن هشام، أم أنا التي تغيرت؟ أفقد الثقة في نفسي، ألم أعجب هشام؟، الآن أنا على الكورنيش يجرحني الولد المراهق بجرأته، نعم غازلني بوقاحة، لسعت كلماته أذني، تسربت إلى داخلي بمزيج من الصدمة والثقة، الحزن، والانتشاء، الإهانة والغرور، لو علم الرجال ما يدور في عقل النساء لكانوا أكثر جرأة، أو أكثر تجاهلاً، الأمران كلاهما يشعل الفتيل في روح الأنثى، الجرأة تفتح أمامها أبواب القفص لتطير، والتجاهل يدفعها للتمرد وإثبات قدرتها على قهر هذا الخجل، لتفتح بأنوثتها أبواب القفص، أعود إلى البيت كالمهزومة، المنتصرة، القوية، الضعيفة، المرهقة، النشيطة، كم

بنت تشعر مثلي بأنها متأرجحة بين النقيض والنقيض، كم فتاة تكره جسمها بنفس الدرجة التي تعشقه بها، كم فتاة يمتلئ صدرها بالخوف بنفس الدرجة التي يمتلئ فيها بالحب، لا يمكن لأي رجل أن يدرك هذا، حتى ولو عرفه بأي وسيلة، هناك أشياء يبقى إدراكها أكبر من معرفتها، هل يمكنك أن تنقل إحساسك بطعم المانجو لشخص لم يذقه أبداً، ستقول له مجرد كلمات قد تحتمل أحاسيس بعيدة، المانجو له طعم السكر، هل هو فعلاً كذلك؟ يلدغ قليلاً، هل هو مثل الليمون؟ من الأسهل أن تقول له ذق لتعرف، وكيف لأي رجل أن يذوق ما تذوقه المرأة، وأن يشعر بما تشعره، ربما إذا شَفَّتْ روحه، الشفافية هي الوحيدة التي تجعلك ترى ما في قلب الزجاجة المملوءة بالهواء، عفواً .. الفارغة من الماء.

- ١٨ -

الكوابيس

تغير المنجي كثيراً، بعد عودته، أمر ببناء سور كبير حول الحديقة، عرض الكوافير للبيع، وكذلك عمارته، صفى جميع أنشطته وحولها إلى أرصدة في البنوك، التوتر كان زائداً، بحيث لم يعط لحياة الفرصة في فهم هذا التحول، أو حتى في الاقتراب منه، تلبس له ما يمكن أن يحرك جبلاً من مكانه، ولكنه بدا مشغولاً عنها، لا تهزه حتى همساتها الدافئة في أذنه، لمساتها الرقيقة، كيف لم يشتعل قلبه، عندما اقتربت بشفتيها تقبله، تضغط على يديه، كالميت الذي لا يستجيب، تسأله عن الذي يشغله فلا تجد إجابة شافية، البرود أصبح كافياً جدا لتجميد الحياة، والحب مثل الجمرة المشتعلة التي يكسوها الجليد، تحترقين يا حياه، حتى إلى جوار زوجها وحبيبها، يدير ظهره لها، ويسلمها للجليد، هل هذا هو الحب الذي كنت تبحثين عنه يا

حيـاة، عندمـا يلامس جلدك جلده يتركك بلا سبب ليـنـام وحده في الغرفـة البـحـرية، كـان لا بد أن أبوح لأمي، اشتكي همـي لـهـا، مصمصت شفتيها، أعلنت حسرتها على الرجال، وما ألم بهم، وطيبت خـاطري بكلمـات، نصحتني أن أذهب إلى نجية الغجرية قـارئة البخت، خطوات وكنت أنا وهي عندهـا، نطلب السر، أخذت تضع كفها على جبهتي سال الماء من بين يديها، طلبت مني أن أدخل الحمام الخوص، نزعت ما علي من ملابس حتى صرت عـارية تمامـاً، مضت ترش على جسدي من مـاء الورد، كـان ندياً، شعرت بـأن مسامي كلها تفتحت، بدأت تدلك جسدي بيديها، كانت بـارعة إلى أقصى درجة، أغمضت عيني وسمحت لها أن تغسلني بـالماء، بينما كنت في دنيا غير الدنيا، أنهار داخلي تتفجر، من العسل والخمر، وعلى جسدي رعشة تسري كـالنسيم، فتحت عيني لأجد عيني في عينيها، شعرت بـالرعب الشديد، كـأنـني أرى شيطـانـاً مريداً، نظرات رجل يلـتـهـمـني بـعـيـنـيـه، انزعجت حينما فتحت عيني كأنني اكتشفتها، سحبت يديها بسرعة، خبا ضوء عينيها، بينما خرج شيء كأنه الدخان من جسدهـا، كـان يتطاير في الهواء، ارتديت ملابسي، وخرجت مع أمي، هنا تغتسل نساء القرية فينجبن، وتذهب عنهم اللعنة، هل تحكي كل واحدة ما حدث لها، أم تخبئه مثلي في قـاع روحهـا، لن أذهب إلى نجية مرة أخرى، إنها أصل الشر، مسحت على قرطي فسقط النزف منه، ورأيت الكوابيس عن السيد، يا ويلك يا حيـاة، مـاذا يحدث حولك، هل هي اللعنة تملأ القرية، بدأت أصدق ما يقوله النـاس أن المنجي مخـاوي، هذا هو السبب الوحيد لما يحدث، حب عمري يبتعد عني لأن الجنية تستحوذ عليه، ولكني

لن أستسلم لها، سأحاربها بكل أسلحتي، لن أتركه لها، لهذا خلق هذا الجسد الجميل، يتدفق الدلال في شراييني، ولا تخلو امرأة جميلة من وسيلة للاستحواذ على رجل، هكذا كانت مرهقة جداً تدخل من البوابة الجديدة بعد أن فتح لها الحارس ضخم الجثة، لتجد المنجي في انتظارها، في عينيه غضب البراكين، آثار البلل مازالت على جسدها، حيث خرجت هاربة من دار نجية، أمها لم تستطع اللحاق بها، وهاهو المنجي ينتظرها وكأنه عرف كل شيء، يستجوبها، يعنفها على فضيحته وسيرته التي أصبحت على كل لسان، يصفعها بعنف، تحاول الخروج هاربة إلى بيت أبيها يلوي يديها عنوة، يدخلها إلى داخل غرفتها ويغلق الباب، ويهددها بالجلد إن خرجت، منهارة ترتمي على السرير، يخرج الزبد من فمها، امرأة مقهورة، تسلم أنفاسها للنحيب، ووجعها لهستريا الصفعات المتتالية، وجهها يحمر كأنه الجمر ولا تكف عن لطمه بعنف، وقلبها يتخبط ككرة من المطاط في جدران الصدر، هل هذا هو المنجي؟.. حلم العمر؟، كيف يتحول الحلم إلى كابوس؟! أيها النساء قفن هنا، لا تمنحن قلوبكن الفرصة لتهيم في حلم مثالي، لا توجد أحلام على هذه الأرض ولا توجد مثالية في أي رجل، توقفن عن الحلم بفارس الأحلام، نحن لسنا في زمن الفوارس، نحن في عصر المال والعنف والخطيئة، يدار شريط عمرها كأنه خلاط الخرسانة، يعصرها مع الطوب والأسمنت، وفي الخبطات، يتهشم العظم، وتخور الروح، ترتعش الأوصال، وتغزو جيوش التعب خلاياها، فتأخذها إلى النعاس، ربما يحمل لها أحلاماً أخرى لا تتحول إلى كوابيس.

-١٩-

«الخـــوف»

قال تعالى «ولنبلونكم بشيء من الخوف...» هل هذا ما أصاب المنجي، الخوف؟!! منذ سقوطه على المقابر ودخوله المستشفى، وحتى سفره للخارج وعودته، يتخبط المنجي، يفكر في الحياة بشكل مختلف، أدرك منذ سقوطه أن الموت قريب جداً، وحين يحصده الموت، سيضيع ويضيع ذكره، كيف كان يعيش حياته السابقة وأي جميل كان يرده للناس، إنهم لا يكفون عن إيذائه بالكلام، عن أصله وفصله، والجن الذي ينسبون له كل نجاح يحققه، حتى حياة التي يحبها أضاعها من يده وأسلمها لرجل آخر لتعيش تعيسة، من هنا قرر وقبل أن يموت أن يعيد كل شيء إلى نصابه، سيكون مثلما يريد الناس، مثلما تعودوا أن يروا البشر باحثين عن ذواتهم، أحلامهم، الناس لا يهمهم إلا أمواله، الصدقات المعلومة، والمال كله قد يضيع ولا يبقى له

غير العجز والمرض، ساعتها لن يجد من يقف إلى جواره، هو أولى بالمال، وهم يجب أن يعتمدوا على أنفسهم، فإلى متى يظلون معتمدين على أمواله وعلاقاته؟! سيقضي ما تبقى من عمره لحياة يتزوجها فيعوضها ما فاتها، ويصون لها ثروته فإذا مات كان لها الملاذ من عيون الناس وشرورهم... وعاد المنجي بقلب جديد، بينما الخوف لم يتركه، تملك من شرايينه، لم يعد يقرب حياة، يخاف أن يترك في أحشائها جنيناً، يولد فلا يجد أباه، الأعمار بيد الله، لكنه يخاف أن يعاني ابنه ما عاناه، ما أقسى اليتم، الوحدة والغربة، سيعاني ابنه من شرور الناس، فلا أحد يرحم، ولا قلب يرق، تقترب منه حياة، يرى اللهفة في عينيها، لمساتها لصدره تشعل في داخله النار، دلالها كأنه يستفز الخلايا، الحب يا منجي يهزمه الخوف، ترتعش يداك، تنفضها بعيداً عنك وتهرب إلى الغرفة الأخرى، تتقلب على النار، كأنك تحارب نفسك، لم تعد تريحك أغنيات الست، ولا يوقظك أذان الفجر، يضرب الشيطان على أذنك فتغط في نوم عميق، حتى تعلو الشمس، بلا عمل تذهب إليه، لماذا بعت الكوافير يا منجي؟ تريد أن تقطع علاقتك بالماضي بالناس، بالحياة، لتعيش وحدك في راحة بال، بعيداً عن تطفلهم ومشكلاتهم التي لا تنفد، والتي لا يجدون لها حلاً إلا عندك، فليتحملوا أوزارهم، فلن تعيش لهم أبداً، الموت قريب، قريب جداً يا منجي، إلى أين ستذهب للجنة أم للنار أم للعدم؟! زلزل إيمانك يا منجي.. المرض يقرب الناس من ربهم وأنت ابتعدت كثيراً، لم تعد تصلي كما كنت، استحوذ الشيطان عليك، ليفسد أيامك، يبعدك عن الحياة ويحرمك من السكينة، العمل كان يحميك من التفكير

والضلال أنت الآن بلا أجنحة تطير بها بعيداً عن وحل الشك، يأخذك الفراغ إلى الظن، هو ملعب الشيطان، يغزو يقينك، ويملؤك بالخوف، بالخوف من كل شيء، حتى الصلاة، ينتفض جسدك وترتعد ولا تستطيع أن تتمها، ولهذا خشيت الذهاب إلى المسجد حتى لا يفتضح أمرك، هل زرعوا لك شرايين أم قلباً جديداً مليئاً بالخوف والشك، قلباً يطاوعك لتضرب حياة، وتتركها تبيت مقهورة في غرفتها، تغلق بابها على نفسها، أم تغلق أبواب رحمتها في وجهك،........!

يعلو صوت المؤذن «الصلاة يا مؤمنين الصلاة»

ينتفض جسده كالطير المذبوح، يضع أصابعه في أذنيه كمن يعاني الصداع، يتصاعد الصوت كأنه من روحه «الصلاة خير من النوم»، يرتمي على السرير، مصاباً بنوبة شديدة، الزبد يخرج من فمه، ترتعش أطرافه بينما يعلو صوت الشيخ باهي بالتلاوة في صلاة الفجر «رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ، يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّار......».

- ٢٠ -

«الصيد»

هنا.. نجحت صابرين في اصطياد هشام، ما أغرب الأنثى، نظراتها إلى هشام نفس نظراتها إلى السيد مع قليل من الخوف، لمسات هشام لها نفس لمسات السيد مع كثير من الجرأة قليل من العنف، تبقى المقارنة قائمة بين رجلين، أحدهما اصطادها، والآخر نجحت في اصطياده، منذ أن رأت أمها، أدركت أن الرومانسية محض أكذوبة، هي الخطأ الكبير الذي يجعل الفتيات يحلمن، وما أقسى عالم الأحلام إذا فتحت أبوابه على الواقع، الشيء الوحيد الذي يتميز به هشام على السيد هو أنه فارس أحلام البنات في الجامعة، إحساس الأنثى أنها تحصل على الفارس الأول، تلمح الغيرة في نفوس الصديقات، وكذلك تأييد الأم، عالم آخر تدخله صابرين مع هشام، ليس فقط عالماً من المعرفة، حيث يفيض عليها بثقافته المبهرة، لا شيء في

الدنيا لا يعرفه هشام، السياسة، الأدب، الرياضة وال.....، لكنه إلى حد بعيد أبعد ما يكون عن الدين، يبدو لي غبياً وصادماً حينما يتحدث عن العقيدة، كنت أشك في أذني هل ما أسمعه من هشام فعلاً أم الشيطان، ولكنه لم يعد يهمني الأمر كثيراً، كل ما يهم أنه مسلم في البطاقة، هذا سيسهل إجراءات الزواج.. أي زواج.. وهو لا يطرح هذا الأمر مطلقاً، نسهر معاً، نرقص، ونشرب، ونمرح، وأمي لا تمانع في ذلك، ربما كانت فخورة بي، لأنني استطعت أن أصطاد رجلاً مثله، كنت أظن حتى ذلك الوقت أنني الصياد وما كنت أدرك أنني....!، حتى أغلق باب شقته، وترك كلماته تغزوني، ويديه وشفتيه تستبيح جسدي، وقبل أن أسلم له، تذكرت أمي، المشهد الذي انغرس في روحي، توترت جداً، وضعت يدي على فمي أقاوم التقيؤ، وكأنني أطفأت جذوته، نظر لي كرجل نبيل، جريت إلى الحمام، ثم عدت لأجده أمامي وعلى وجهه علامات الانزعاج، أردت الانصراف، فاستجاب لي أوصلني وأصر على أن يصعد معي، هنا رأته أمي وليتها لم تفعل، ولكنه القدر، لم يشعر وقتها أحد بما أصابني، يبدو أن ما رأيته من أمي أصابني بعقدة، الأزمة هو أنني بعد محاولة هشام الفاشلة أصبحت أراه كجيفة عفنة، ولكنه لم يحترم انصرافي عنه، عدم تلبيتي لطلباته، جاء إلى البيت ليطلب يدي، أخبرتني أمي، لم أدر ماذا أفعل، هل امتناعي عنه هو الذي أحضره إلى هنا، هل منحتني بكارتي مرة أخرى مهارة من مهارات الصيد، ولكني الآن لا أريده، أخبرت أمي بذلك، ولكنها اتهمتني بالغباء، هل ما زلت أفكر في السيد، هل أراد القدر أن يعصمني فلا أكون لأحد سواه، أمي أقلعت عن نشاطها المحرم،

استعداداً للنسب القادم، والشاب كل يوم في البيت، وأمي تختلق له الأعذار، وهو لا يمل من المحاولة، وفي الكلية لم أعد أحضر، أهرب من أي مكان يمكن أن يجمعني به، ولا أرد على تليفوناته حتى صمتت، ومل الذهاب إلى بيتي.. وقتها عنفتني أمي، وقالت إني لا أستحقه، لأنني فتاة خائبة، لم أتعلم منها شيئاً، أما أنا فأشعر بارتياح شديد، أيامي تمر بلا سهرات مرهقة، بلا تعرية للجسد تغتال معها الروح، وبلا مساحات أمنحها لرجل كافر بالله ليفسد إيماني ويزلزل عقيدتي، وفي النهاية يطمع في جسدي، أنا الآن مرتاحة أشتاق إلى السيد كاشتياق الوردة الظمآنة إلى الندى، تسلم تياراتها الباردة للقمر الحزين، يرسل لها دمعاته كأنها دمعات السيد، الضوء يخترق الغرفة هذه المرة حزيناً يائساً محملاً بالشجن، فيروز تغني كأنها الوجع الرومانسي،«بعدك على بالي يا قمر الحلوين»، تواسيها في حالها، أم تذكرها بالغائب، تأخذها للخيال أم تعيدها مرة أخرى إلى الواقع المر، تخبو روحها رويداً رويداً، يأكلها الانتظار، قسوة الأم، مفاجآت القدر، وغياب الحبيب، إنه الصبر يا صابرين ليس لك إلا هو طوق نجاة، ربما تستطيعين الصمود كثيراً في بئر الوحل، لتخرجي بيضاء من غير سوء على رغم كل ما يحدث.

-٢١-

«الناس»

كل شيء يتغير، والناس في القرية كما هم، يجلسون تحت الجميزة العجوز بجوار الجامع الكبير، يلعبون السيجة ويديرون مواويل النميمة، حتى الشباب الجالس على المقهى الغربي، يلوكون حكايات المنجي وهم يلعبون الورق، يدخنون الشيشة، لا شيء يسلي الناس أكثر من حكايات الناس، الكل يتساءل ماذا حدث للمنجي؟ ما الذي غير هذا الرجل؟ سافر إلى الخارج ليزرعوا له قلباً فعاد بحال غير الذي ذهب عليه؟ أي قلب زرعوه له؟ الولد صديق ابن شيخ الخفراء يتهمهم بالجهل، تغير الأعضاء لا يغير السلوك يا ناس!! ولكنهم لا يصدقون إلا ما تراه أعينهم، لقد رأوا حياة تخرج من البيت، هي وأمها ذاهبة إلى نجية الغجرية، ثم رأوها تجري وآثار الماء على جسدها، أخذهم الأمر على الرجوع إلى موالهم القديم، الجنية التي عشقت

المنجي، هل تظنون رجلاً يصل إلى هذا الثراء بمجهوده فقط، كلنا يعرف المنجي، نحفظ تاريخه منذ أن جاء أبوه إلى القرية كفرع مقطوع، وموته على سقالة البناء، وما فعله القس يوحنا حينما أخذ المنجي إلى نسيم الكوافير ليعلمه الصنعة، ها هو نسيم كما هو، ولم يصل إلى ثراء المنجي، إنه لا شك على علاقة بالجان يمدونه بالمال والصولجان،ولم لا وهو الذي نلجأ إليه في كل أمر فيخلصنا، كأنه رباني يقول للشيء كن فيكون، سبحان مغير الأحوال، أغلق الكوافير وصفى أعماله، حتى أصحاب الصدقة المعلومة لم يروا منه ولو قرشاً واحداً بعد عودته من السفر، العجيب أنه لا شيء تغير في القرية، ظن الجميع أنه ستحدث أزمة، والذين يعتمدون على صدقات المنجي سيخرجون للشوارع يسألون الناس، نسوا أن الله هو الذي يرزق وليس «المنجي»، يتخبط الناس في تيههم، لا يعرفون من الذي يدفع الصدقات بعد المنجي، الوحيد الذي يعرف هو بيتر، نعم.. إنه بيتر جرجس ميخائيل، ناداه الأب يوحنا وأمره أن يوزع الصدقات على الناس سراً، وقال له ليس المهم من يدفع الصدقة، كلنا وسيلة الرب..... يمر الوقت على الناس، ويخفت صوت المنجي، يتلاشى تدريجياً، بينما يحل محله الأحاديث العادية، حول الأولاد الذين لا يجدون وظائفَ، والعائدون بأموال الخليج ليهدموا بيوتهم الطينية، فتحل محلها أعمدة الخرسانة، وكذلك الدولارات القادمة من الخارج لتغير شكل الحياة في القرية، كل شيء تغير، وجلسة العجائز تحت الجميزة يلعبون السيجة كما هي، والنميمة على المقهى الغربي لا تنقطع، الفضائح أصبحت أكثر إثارة من قصة المنجي، والرشى

أصبحت الطريق البديل لتعيين الأولاد، لا أحد يذكر المنجي الآن، الكل يفكر في الحديث عن الشباب الذين يسرقون الأبقار من الحقول وماكينات الري، ويفكون قضبان السكك الحديدية ليبيعوها بالكيلو، المخدرات التي انتشرت في القرية بحيث أصبح الحشيش مثل السجائر متاحاً للجميع، لم يعد للناس أسطورة يلتفون حولها لا منجي ولا غيره، أصبحت الدولارات هي الملجأ، يدورون حيث تدور، فتيات القرية اللواتي يصورونهن على الموبايل في أوضاع مخلة ليبيعوها بالدولار، حتى الشرف أصبح يباع ويشترى، والنميمة تزداد، الشيخ باهي يصرخ على المنبر، يحذرهم من الانهيار مردداً:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولكن الناس وكأنهم يعارضون البيت..

وإنما الأمم الأموال ما بقيت

فإن همو ذهبت أموالهم ذهبوا

الناس الآن مستعدون للبيع، نعم كل شيء في المزاد إنهم في انتظار المشتري لبس مهماً من أين أتى بأمواله، المهم أنه يملك المال، وطوبى للشرفاء.. الشيخ باهي يجري كالمخبول قاطعاً القرية طولها وعرضها.. يقف على بوابة المنجي، يصرخ بصوته المجروح «فلا نامت أعين الجبناء» يرن الصدى في جنبات البيت الكبير، ينتفض المنجي، يصل الصوت إلى أذن العمدة

الوقور ينادي على شيخ الخفراء، يجول حول القرية كمن يحمي الحمى المتهالك، يغلق المقهى مبكراً ويهش الناس على بيوتهم، أمسك بندقيته وأطلق بضع رصاصات في الهواء، ارتجت القرية، نامت كما أراد لها العمدة، بينما صوت رنين الذهب في أرواحهم يعلو على صوت طلقات الرصاص، أي فتنة يدخل الناس فيها، مازال الناس يتخبطون بعد أن فقدوا الكلمة التي تجمعهم، وأصبح كل واحد يسعى في واديه، القرية صامتة جدا ومهيبة وكأنها تنتظر حدوث شيء كبير، منذ وقت بعيد لم تغط القرية في نوم عميق كهذا، العمدة قام بقطع الكهرباء عن القرية، وضباط المباحث، يفتشون البيوت واحدا تلو الآخر، يقبضون على المشبوهين، أصوات صراخ النسوة تشق السكون، تنتفض القلوب، ترتجف الأطراف بينما الشيخ باهي يردد «قضي الأمر الذي فيه تستفتيان».

-٢٢-

«اليقين»

انتفض المنجي عاريا كمن لدغته حية، شعرت حياة بخجلها من نفسها وخوفها من غضب المنجي لما فعلته، ولكنه لم يغضب، بدا كالمصعوق في ركن الغرفة، وكأنه يطرح على نفسه السؤال الصعب، كيف حدث ذلك؟ كان لا بد لحياة أن تقطع الشك باليقين، إن كان المنجي مخاوياً لجنية فإنها لن تتركها تمارس مودتها إليه، لقد قررت أن تجعله بعيداً عن المعركة المحتملة، فأتته وهو نائم، الآن هي والجنية تتنافسان على رجل نائم، ليس له إرادة، اقتربت حياة، لم تشعر بأي جنية تعترض طريقها لتتلمس دفء بشرة المنجي، وتحصل على البلور من جبينه، إنه زوجها وحبيبها الذي حرمت منه طويلاً، الآن لها وحدها، لقد وضعت له المنوم بالشاي، ولن يشعر بشيء، يمكنها أن تتلمس طريقها نحو عضلاته المرسومة

وسلسلة ظهره القوية، تختبئ فيه، تثيره بما لا يخطر على قلب أنثى، يتجاوب معها كأنه الحلم، هي الآن تقطف من أشجار اليقين، تعتلي المنجي كجواد جامح يسلمها للريح، كم كانت تعشق لعبة الأرجوحة وهي طفلة، لم تكن تدري أنه في يوم كهذا سوف تأخذها الأرجوحة إلى أعلى سماوات اللذة، بينما كان المنجي يغمض عينيه على حلمه القديم حينما طلب حياة للرقص دون أن يخبرها أنهم زرعوا الساحة بزجاجات العطر المكسورة، ساعتها كانت النشوة أقوى من قدرتهما على المقاومة، لم يشعرا بالنزف وهو يختلط بالعطر، تتصاعد الأنات إلى السماء يعود رجعها كأنه آهات اللذة.

ظلت طوال الليل عارية في صدره يفيق على مهل في نعومتها، ينتفض فجأة كالمذعور، شعرت حياة بخجلها من عريها ومما فعلت، وهو كان كالمصعوق هل حدث ما كان يخشاه، أخذته حياة دون أن يدري، حصلت في أحشائها على جنين منه، ربما يولد يتيماً دون أن يجد من يرعاه، هل سيكفيه ما جمعته له من مال، ومن سيحافظ له عليه من شرور الناس وأطماعهم؟ كان المنجي يبكي منهاراً في ركن الغرفة بينما جرت إليه حياة، تأخذه في حضنها، لا تعلم سبباً لحزنه ودموعه، غير أنها تريد أن تحمله على رأسها وتطوف به العالم لتقول لهم هذا هو رجلي، فارس أحلامي، أنها تأخذه في حضنها وتستدعي كل ما أصابها من ألم ومعاناة، فتشعر في لذته أنها ما أصابها ألم قط، ما أشهاك يا منجي، ما أقساك ياحياة، كلما كانت تذوب في أحضانه، كان يشعر وكأنها

كـالشـمـعـة تـذوب مـن لـهيب اشـتـعـالـه، لـتكوي جلده بـالشـمـع المنصـهر، ليتني لم أحب، ولم أتزوج، بينمـا حيـاة تورد الدم في خـدودهـا سـال الشـهـد من علـى جسدهـا، حملـهـا المنـجي بين ذراعيه لتستحم بيديه الخبيرتين، فتشعر كم هي نـاعمة وعذبة، هـي لا تشعر بـآلامه، لا تشعر إلا بـاللذة المتصاعدة، وهـو فقط يشعر بزجاج العطر المكسور تحت أرجلهم، أمـا هـي فتود أن تصرخ يـا نسـاء العـالم جربوا ذوبـان العطر في الروح وهو يخبئ صرختـه المكتومة، التي عـاش عمره كلـه يـهرب منـهـا!!!

-٢٣-

«العـــودة»

القرية كلها كانت تنتظر السيد البلطي، فأمواله سبقته، بناء المساجد، شراء الأراضي لإقامة مراكز الشباب والمدارس والمعاهد الدينية، ليس في القرية فحسب، وإنما في القرى المجاورة أيضاً، لا أحد يعرف من أين أتى السيد البلطي بهذه الأموال، البعض يقول إنه عاد بها من إيطاليا، وتؤكد بعض الشائعات المنطلقة من قرى بعيدة أنه كان يعمل معهم في شرم الشيخ، ولكن هل العمل في السياحة يجلب كل هذه الأموال؟ هكذا الناس يأكلون من طعامك وينمون عليك، وكذلك كان عهدهم بالمنجي، عاد السيد البلطي إلى القرية ليلاً، يقولون إنه أحضر لأبيه عبد الرحيم البلطي حقيبة سفر مليئة بالأوراق الخضر، من أين يأتون بالأخبار، لا أحد يعرف، ها هو عبد الرحيم يلبس الجلباب الصوف المعتبر والعباءة الإمبريال

ماركة أبو عكاز الأصلي، تاركاً الصيد للبحر، قانعاً بما تركه السيد من أموال لو عاش عبد الرحيم بقية عمره ينفق منها ما نفدت، ولكن الفلوس تلعب بالنفوس كما تلعب الخمر بالعقول، عبد الرحيم ركب الجواد العربي الأصيل الذي اشتراه بدولارات السيد، ومضى إلى بيت سندس الغازية يطلبها للزواج، وافقت سندس مخفية اندهاشها من الرجل الذي سترها حينما خرجت عارية من بيت المنجي، الآن يريد أن يسترها بظله بعدما أرهقها اليأس من الوحدة، بينما عبد الرحيم جعله المال شرهاً لتحقيق رغباته، كل رغباته، وهو لم ينس أبداً جسد سندس العاري الذي ستره عن الناس ليحبسه في خياله، حتى يتحقق الحلم بدولارات السيد، جرت حسنات كالمجنونة في شوارع القرية تصرخ وهي تسب عبد الرحيم البلطي بحرقة، تختصر الشوارع متجهة إلى بيت المنجي، وقفت عند البوابة تنادي كطير مذبوح أنهكته الحركة في أثناء خلاص روحه حتى همدت أمام البوابة، لينزل المنجي بنفسه ليحملها بين ذراعيه ثم يصعد بها إلى أعلى، غضب المنجي كثيراً لما سمعه من أخبار، جاء السيد إلى البلد ولم يمر عليه، ولم يسأل عن أخته، جاءها مثل اللصوص وخرج منها كذلك، ولكن حياة روحها في السيد، تضع يديها على بطنها، وهي تقول للمنجي، حينما يأتي الولد إلى الدنيا سنسميه السيد، لكي يكون الولد لخاله، لا يرد عليها المنجي فوقتها لم يكن يعرف شيئاً عن الخال، أما الآن فهو يشك في أمواله من أين اكتسبها؟ وفيم ينفقها؟ هل يريد ابن عبد الرحيم البلطي أن يصنع لنفسه مجداً يمحو به تاريخ المنجي في هذا البلد الحزين؟ هل ينسحب اسم المنجي الذي ظل يرن في

سماء البلد طوال هذه السنوات ليحل محله اسم السيد البلطي؟ انطلقت طبلة المسحراتي تجوب البلد، خرج أهل البلد كأنه يوم النشور، شاخصة أبصارهم نحو موكب السيد، يستقبلون فارسهم الذي سيخلصهم من الفقر والجهل والمرض، والذي بنى لهم المستشفيات والمدارس، وسيساعد أولادهم على العيش بكرامة، يغنون له كما كانوا يغنون للمنجي، تمر الزفة من أمام بيت المنجي، كان المنجي قد أمر الحراس أن يطلقوا رصاصاتهم في الهواء فيمنعون الزفة من المرور أمام البيت، يتغير مسار الزفة، بينما تعلو همهمات الناس، لماذا فعل المنجي هذا في نسيبه وفارس البلد؟ بينما السيد كان يختال على حصانه وسط موكبه المهيب، لم يغير ما حدث ابتسامته التي على وجهه ربما زادت، بينما في عقله يدور السؤال، هل جاء اليوم الذي تغير فيه مني يا منجي؟، تغير مسار الموكب بينما ظلت حياة تتابع السيد من شرفتها، حتى اختفى عن عيونها، دون أن تشبع منه، سالت دموعها وازدادت حدة غضبها على المنجي الذي أقسم عليها بالطلاق ألا تخرج للقاء السيد، ولا تقرب هداياه التي أرسلها، سألته عن السبب، فأخبرها أنه يشك في أمواله فلا أحد يدري من أين حصل عليها؟ «ومن أين حصلت على أموالك يا منجي؟» صفعها بشدة، وبات في غرقته البحرية، بينما لم تتحمل هجره كثيراً، ذهبت إليه تسترضيه عليها، لتحصل على حضنه، وتذوب فيه بهمومها، بينما وكأنها ترد على عتاب السيد الذي يصرخ في ضميرها، لا تعاتبني يا سيد، المرأة لزوجها، لنبضها الذي يستريح فيه، هذا حكم الله علينا «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن».

استراحت في حضن المنجي بينما تمني نفسها أن يزول الخلاف بينه وبين السيد، حتى لا تتمزع روحها بين الاثنين، لقد تعودت أن بالصبر يحصل الإنسان على ما يريد، ولقد صبرت حياة كثيراً، فهل يرتاح قلبها أخيراً، تضع يدها على بطنها حيث جنينها المنتظر، ناظرة إلى وجه المنجي بينما البلور يغطيه بغزارة.

-٢٤-

«المفاجآت»

لا تخلو الحياة من مفاجآت، بعضها أغرب من قدرتنا على التخيل، ولكنها تحدث، حتى لا نستسلم عبر رحلتنا الطويلة في الحياة إلى مسلمات ثابتة، فما نتوقعه يسعدنا يفاجئنا بالتعاسة، وما نتوقعه لنا يكون لغيرنا، فليس من حقك كل ما حلمت به، فإنه ما كان لك إلا ما حصلت عليه. تزوجت أم صابرين المعيد الشاب، أقلعت عن نشاطها، وغيرت محل إقامتها، أما صابرين فلم تعترض الزواج، فقط حذرت أمها أن هذا الزواج ربما يكون عمره قصيراً جداً، بينما الأم الخبيرة أخبرتها أنها تعرف كيف تستحوذ على رجل، هنا أخفتها صابرين في نفسها ولم تبدها للأم، قالت لو كان الأمر كما تقولين لاستطعت الحفاظ على أبي في أحضانك للأبد، بينما مضت الأم تؤكد أنها تحيط بالمعيد الشاب بين ذراعيها، تمنحه اللذة والأمان، تعطيه الطاقة

لمواصلة الحياة، تكون له الأم والحبيبة والعشيقة، إنه لن يجد هذا إلا عندها، بينما عند صابرين لم يتغير الوضع كثيراً، هي تنظر إلى هشام كجيفة عفنة، تدخل غرفتها وتضع الوكمان في أذنيها، فلا تصل إليها تأوهات هشام ولا صرخات الأم وضحكاتها، تفتح الشرفة كعادتها، البيت الجديد موقعه لا يسمح لها برؤية القمر، تنام في الغرفة مسلمة نفسها للامبالاة عجيبة كأنها السكينة، تسير الحياة بها بطيئة كالموت، حتى تلمح صورته في الجريدة، السيد البلطي، عاد إلى مصر ولم يتصل بها، أصبح رجل أعمال شهيراً وحصل على حصانة المجلس، كل هذا وهي لا تعلم، والآن أراد لها القدر المفاجأة لترى صورته في إعلان الخطبة، ما الذي جعلها تفكر في تصفح الجريدة والبحث عن صور الخطوبة، هل كانت تمني نفسها بعودة السيد ليعلن خطبتهما، طارت الأمنية، أجهضتها المفاجأة، لكنها لم تدمع عيونها هذه المرة، قررت أن تتخلى عن سلبيتها، وأن تواجه الحياة بقوة المحاربين، ستحصل على عنوان السيد وتذهب له حيث شركته لتذكره بعهده الذي أخذه على نفسه، وصانته له، ستحسم الحلم الذي عاشت فيه طوال الوقت، فإما يتحول إلى حقيقة، وإما يضمحل فلا يبقى في بؤرة الذاكرة، منعها الأمن عند بوابة الشركة ولكنها كانت أكثر إصراراً وقوة، حتى أبلغوا سيادته باسمها، نزل بنفسه ليستقبلها، الحنين يمتزج باللهفة في عينيه، يصافحها فيضغط على أصابعها نفس ضغطته القديمة، كأنها بصمة في الروح تستدعيها صابرين، يأخذ بيديها ليركبا سيارته الفخمة وينطلقا، حدثها كثيراً، بينما كانت هي صامتة شاردة، تنتظر أن يحدثها فيما هو أهم من جمالها الذي لم يتغير، ورقتها التي مازالت

تلاعب روحه باللذة، الزواج يا سيد، الحلم الذي كنت ترغب في السفر إلى إيطاليا لتحصل على ما يكفي من الأموال لتحقيقه، الآن حصلت على الأموال فماذا تنتظر؟، أخبرها عن التي كانت معه في الجريدة، من تكون؟ ومن هو أبوها؟ تصاهرهم يا سيد الذين ضيعوا حياتك في السجون، تكافئهم بعد كل ذلك بأن تصاهرهم، الآن تغير خطابك عنهم، أصبحوا الآن يسعون لمصلحة البلاد ونمو اقتصادها؟!، ما الذي حدث لتتخلى عن كل قناعاتك؟ وتتهم نفسك أنك كنت سفيهاً، لا تدري كيف تسير الأمور، قال لها هوني الأمر عليك يا صابرين، أنا لم أحب غيرك، فقط أريد مزيداً من السلطة لتحمي الثروة، أما أنا فسأثبت لك حالاً أنني أحبك، سوف أذهب معك إلى أمك لأطلب يدك منها، وأشتري لك أغلى شبكة وأعظم شقة في الإسكندرية، على أن يبقى زواجنا سراً، تذكرت أمها التي تزوجت هشام سراً بنفس الطريقة، السيد حصل على كل شيء ويريد أن يرضي مزاجه بي، فلا يكون قد خسر شيئاً، تركتْهُ لتسافر بالقطار بينما تفكر كيف أنها تعود منتصرة وقوية، رفضت عرض السيد بمنتهى العنف، أخبرته أنه لا يمكن أن يشتري الحب، لو أرادها فها هو العنوان، إذا أراد أن يأتيها ليعلن للدنيا أنها زوجته، إنها لا تريد أموالاً، وما أحبت السيد عندما أحبته وهو يركب سيارة فخمة، أحبته وهو فقير معدم، خارجاً من السجن، الآن هي تريد السيد الذي يمتلئ قلبه بالطهر، إنها تريد القيمة ولا تحتفي بالسعر، يا ويلك يا سيد كل أموالك وأبهتك وسلطتك لا تستطيع أن تمنحك السكينة، قديماً كان هناك حب ولا مال، الآن مال ولا حب، لو أخذوك الآن إلى السجن لتنزف دماءك هناك، ماذا كنت سوف تكتب بها؟

-٢٥-

«دخان الحسرة»

تمدد العم عرفات وأخذ نفساً غليظاً من الشيشة، مخرجاً من أنفه خطين من سحابات الدخان، فعبق الجو بدخان التجليات وسكرات الموتة الصغرى كما يسميها.. بدأ يحكي.. كل ما يحكيه عن الزمن الذي عاصره، لم يكن يحكي عن أبي زيد سلامة والزناتي خليفة، كل ما يحكيه عن النوادر والغرائب التي قابلها في حياته، وما أكثرها عند رجل كان يعمل خفيراً في دوار العمدة حتى خروجه على المعاش، «يوم موت الرئيس جمال عبد الناصر حملنا تابوتاً فارغاً وشيعنا جنازة مهيبة في القرية والقرى المجاورة كان يوماً أسود على البلد كله، الكل خاف أن يعود البلد مرة أخرى للإقطاع والذل»

– ليه السيرة دي ياعم عرفات؟! احكِ لنا عن عدية يس التي

قرأها الشيخ باهي وما فعلته بالحجاج النوري.

- أنا عارف إن عقولكم فارغة ليس لكم في السياسة ولا تعرفون الاشتراكية من الإقطاع من القرع العسلي؟

- يعني اللي بيفهموا عملوا إيه يا عم عرفات؟

سحب نفساً آخر من الشيشة كأنه يتحسر على ما كان، ويسترجع طاقته في الحكي والتمثيل، ليشرح لهم كيف أن الحجاج النوري كان ابن ليل يذبح الذئب ويشوي كبده ليأكله، نقب حظيرة مواشي في غرب البلد لإبراهيم الحافي وسرق كل ما فيها من عجول سمان، فأصبح إبراهيم مفزوعاً لما حدث فذهب إلى العمدة دون أن يفعل له شيئاً، فلجأ إلى الشيخ باهي فقرأ له عدية يس وبينما كان الشيخ باهي يتلو كان الحجاج يطلع عمود التليفون الشاهق العتيق ليقطع أسلاك التليفون ليبيعها بالكيلو، فنشف مكانه على العمود وطلع السر الإلهي، وظل معلقاً في حبله على العمود عبرة لمن يعتبر حتى تجمع أهل القرية وفشلت محاولات إنزاله، جاءت الإسعاف والمطافي، وفردوا سلم المطافي الكبير وطلعوا يحملون جسمانه الضخم الذي كم عربد في الأرض فساداً ليهلك الحرث والنسل..

كان عرفات يحكي لهم بينما، كان عوض شارداً في حياة وجنينها الذي تحمله من صلب المنجي، إذاً فالعيب منه لا محالة، كذبت عليه الملعونة، لتتخلص من حياتها معه، وتتزوج المنجي وتنجب منه وترث الثروة الطائلة، وتتركه وحيداً مرجوماً بنظرات الشفقة من أهله والتشفي من أعدائه، كم أنت

غبي يا عوض، والغبي يستحق الخسارة.

- أنا قلت لكم المنجي ليس مخاوي لم تصدقوني؟

- على رأيك يا عم عرفات.. كلها خرافات!!

- خرافات إيه يا ابن المخبولة؟

انفجر الجميع في الضحك بينما مضى العم عرفات يحكي لهم عن المخاوي الحقيقي..

(حصافي) الذي كان وافداً مع الغجر فسكن القرية هو وزوجته نجية، كان ينعزل عن الناس بالشهور ليأكل الزيت بالعيش، يصاحب الجن ويتعلم من علومهم كيف يطبب الناس ويفك المربوط، ويشفي المصروع.. كان يختفي إذا أراد عن العيون ويطير إلى أي مكان يريده، قبضوا عليه حينما أخرج كنوز الفراعين من تحت الجميزة العجوز، ولكنه ذاب بين جدران السجن، فرد عباءته على أرض الزنزانة الرطبة وقال للمحبوسين معه، من أراد أن يركب معي السفينة فليركب، فسخروا منه إلا قليلاً منهم، ركبوا العباءة واختفوا!! ومن يومها ونجية وحدها يظهر لها ويختفي وقتما يريد، أقسم لهم أنه ذات مرة كلفه العمدة بالقبض عليه.. فتسلل إلى حيث سمع تأوهاتهما وهما في الفراش فاقتحم المكان مصوباً بندقيته نحوهما فلم ير غيرها في السرير، سترت صدرها بيديها لتداري كوكبين لامعين بينما عباءة حصافي تغطي نصفها السفلي، لم يكد يلتقط أنفاسه حتى أتته لطمة على وجهه من حيث لا يحتسب، فمكث يومين كالأعمى لا يرى كف يده، حتى ذهب

لنجية معتذراً، محضراً لها طلبات الأسياد.......... أما المنجي فهو رجل طيب لا علاقة له بالجان، وأكاد أشك أن نجية سلطت عليه مارداً عزله عن الناس وألقى في قلبه الرعب، فلم يعد يصلي، لأنه يمنعه من المسجد، ولو دخل الجامع سترون بأم أعينكم كيف أنه سيسقط كالمصروع

– والسيد البلطي يا عم عرفات؟!

– آه يا بلد ألعن من البهائم.. تهز ذيلها للي يحش لها برسيم!!

انفجروا من الضحك بينما كان العم عرفات يشد نفساً من الشيشة لينفخ فيها دخان الحسرة اللعين!!

-٢٦-

«المد الأبيض»

وضرب لهم السيد المسيح في الإنجيل مثلا «يُشْبِهُ مَلَكُوت السَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا زَرَعَ زَرْعًا جَيِّدًا فِي حَقْلِهِ. وَفِيمَا النَّاسُ نِيَامٌ جَاءَ عَدُوُّهُ وَزَرَعَ زَوَانًا فِي وَسْطِ الْحِنْطَةِ وَمَضَى. فَلَمَّا طَلَعَ النَّبَاتُ وَصَنَعَ ثَمَرًا، حِينَئِذٍ ظَهَرَ الزَّوَانُ أَيْضًا. فَجَاءَ عَبِيدُ رَبِّ الْبَيْتِ وَقَالُوا لَهُ: يَا سَيِّدُ، أَلَيْسَ زَرْعًا جَيِّدًا زَرَعْتَ فِي حَقْلِكَ؟ فَمِنْ أَيْنَ لَهُ زَوَانٌ؟. فَقَالَ لَهُمْ: إِنْسَانٌ عَدُوٌّ فَعَلَ هذَا. فَقَالَ لَهُ الْعَبِيدُ: أَتُرِيدُ أَنْ نَذْهَبَ وَنَجْمَعَهُ؟ فَقَالَ: لاَ! لِئَلاَّ تَقْلَعُوا الْحِنْطَةَ مَعَ الزَّوَانِ وَأَنْتُمْ تَجْمَعُونَهُ. دَعُوهُمَا يَنْمِيَانِ كِلاَهُمَا مَعًا إِلَى الْحَصَادِ، وَفِي وَقْتِ الْحَصَادِ أَقُولُ لِلْحَصَّادِينَ: اجْمَعُوا أَوَّلاً الزَّوَانَ وَاحْزِمُوهُ حُزَمًا لِيُحْرَقَ، وَأَمَّا الْحِنْطَةَ فَاجْمَعُوهَا إِلَى مَخْزَنِي».

فهل انتشر الزوان الذي زرعه الشيطان في حقل الرب ليملأ القرية حتى لم نعد نرى الحنطة من خلاله؟!! أم أن هناك الخير دائماً .. في رجال يصطفيهم الرب ليمنحهم القدرة على محبة الناس؟! كان الأب يوحنا في الكنيسة يحاول أن يجتبي القلوب بالنور، يذكرهم بأنه لا سبيل لأن نجني المحبة إلا إذا زرعناها أولاً في حقول قلوبنا، وسيأتي اليوم المحتوم لا محالة، هذا اليوم الذي يحصد فيه الشر ويجمع في حزم ليلقى في النار، بينما ينتصر الحب في النهاية، كان يهدئ النفوس الثائرة التي تشير بأصابع الاتهام إلى المسلمين في القرية، في أنهم استحلوا أموال المسيحيين فسرقوا بهائمهم من الحظائر واعتلوا أسطح المنازل ليلاً ليقفزوا منها إلى داخل البيوت والناس نيام فيسرقون الحلي والأموال والأجهزة الكهربائية، فقام المسلمون بردم شريان المياه الذي يمتد أمام حقولهم إلى أرض النصارى بعد المعركة الشديدة التي قامت بعد القبض على أبناء المسلمين من قبل أجهزة الأمن للتحقيق، قال لهم الأب:

«لا يجترئ على بيتك ليلاً إلا من دخله نهاراً» فنظروا جميعاً إلى بعضهم البعض، بينما أردف الأب «اللص ليس له دين، أما عن رشا المياه فالمسلمون هم الذين حفروه على نفقتهم وأمام أرضهم وكنتم تروون منه بالتراضي فإذا تعكر بالعداوة فالردم أولى واحفروا لأنفسكم ما يروي أرضكم من الناحية الأخرى»

بينما كان الشيخ باهي وسط مريديه في حلقة الذكر متكئاً فجلس، وبان في عينيه غضب شديد من الذين تشاجروا في المسجد بعد أذان الظهر ولجؤوا إليه ليفصل بينهم، تطاول الولد

مرتضى على الحاج فاروق لأنه صلى على النبي جهراً بعد الأذان، زجره واتهمه بأنه مبتدع في الدين فلطمه الحاج فاروق ونهره في غلظة وتعالت أصوات الشجار في المسجد، قال لهم الشيخ باهي «من يعرف قدر النبي لا يجعله سبباً لخلاف أمته»، صمتوا كأن على رؤوسهم الطير، واحتدت نبرته وهو يقول «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها» ثم انتفض قائماً وأشار إلى الولد صديق ابن شيخ الخفراء أن يتبعه قاصدين الرشا مصدر النزاع فأمسك الفأس وفتحه دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض، فانسابت المياه متدفقة نحو أراضي النصارى حاملة معها بقايا الدماء التي شربها التراب من المعركة الحامية، كانت المياه تتدفق لتمر نحو الأرض الطيبة، بينما كان المسيحيون خارجين لتوهم من الكنيسة، وقفوا مكانهم وكأن المنظر أذهلهم، تقدم الأب يوحنا محاولاً أن يشكر الشيخ بابتسامة رحيمة «عنك يا مولانا لقد أمرتهم أن يحفروا رشا غيره» فرد عليه الشيخ باهي والعرق يضيء من وجهه «وما فعلته عن أمري».

هدأت القرية.. وانطفأت النيران.. تصالحوا في المركز، خرج المحبوسون، والجرحى عادوا من المستشفي وقد غسل الحدث قلوب الجميع، أعد العمدة وليمة كبيرة، ودعا الأب يوحنا والشيخ باهي والمأمور، بينما الشيخ باهي أصر ألا يحضر وليمة لا يأكل منها فقراء القرية

ثم أرسل إلى العمدة صحيفة مكتوب فيها «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم»: «شر الطعام طعام الوليمة يمنعها من

يأتيها ويدعى إليها من يأباها، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله»»، فهم العمدة مقصد الشيخ.. فأمر بأن تذبح العجول تيمنا بحقن الدماء وفرشت الساحة أمام دوار العمدة وحضر فقراء القرية جميعاً والسادة ولم يفرق بينهم في الطعام، أكلوا حتى شبعوا ومضى الأب يوحنا يوزع أكياساً من النقود على أفراد بعينهم، لم يلحظه إلا الشيخ باهي الذي قال له «تعطي الجائع كي لا يسرق؟!»، بينما أشار الشيخ بعصاه إلى الطعام «اليد التي تأكل من طعامنا وتسرقنا تستحق القطع».

لوح بعصاه والسارقون وحدهم من فهموا إشارته.. زاغت أبصارهم مع عصاه بينما قرروا ألا يعودوا لمثلها.. باتت القرية في سلام بينما وقت صلاة الفجر كانت ترن أجراس الكنيسة والأب يوحنا يشرح لهم ما جاء في الإنجيل عن مثل القمح والزوان.

بينما كان يتلو الشيخ باهي في صلاة الفجر «....... وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً».

-٢٧-

«النزف الأخير»

باتت القرية في سلام ثم قامت والفزع يغزوها، الريح الشديدة تقتلع الأشجار من جذورها، وتكاد تخلع الرجال من أحذيتهم وهم يسيرون على الأرض، شرفات بيت المنجي ينكسر زجاجها، قلب حياة ينقبض بشدة، كانت عارية إلى جوار المنجي ففتحت عينيها على أصوات كسر الزجاج فلم تجده إلى جوارها، ترتدي ملابسها وتقوم لتبحث عنه في البيت، فلا تجده.

جلسته إلى البحر حيث يقولون الجنية اصطادته من هناك، وحده ينظر في حدة إلى الموج وقت النوة، يشعر في قلبه بالريح ترج القرية، ولكنه كان مطمئناً على حياة، فقد أمر الحراس ألا يخرجوها مهما حدث، كان ينظر إلى الموج في نفس المكان الذي كان يرتاده طوال هذه السنين ولا أحد يعرف سره، كلهم

يعتقدون أن الجنية اصطادته من هناك، لا يعرفون أن أمه ماتت هنا، حينما أخذهما أبوه وهاجر بهما، كانت تحمل في بطنها جنيناً، ولكنها أرادت البحر فنزل بها أبوه عبد الناصر، أحاطها بذراعيه حيث كانت مستسلمة للموج بينما المنجي الصغير يلعب بعوامته قريباً من الشط.. وكانت النوة، ارتفع الموج ليضرب على ذراع عبد الناصر القوية، فيختل توازنه، لتضيع الأم بعيداً، يرهقها الحمل فلا تستطيع مقاومة الغرق، يجري أبوه ليستعيدها بالقوة، ولكنها ذهبت، حيثما أراد لها البحر، وبقي أبوه يأتي به إلى هذا المكان حتى مات، ولكن الناس لم تلحظ ذلك، إلا أنه حينما كان يجيء المنجي إلى قبر أمه بعد وفاة أبيه، كانوا يدعون أنه على علاقة بجنية في البحر، إنه البحر أيها الجاهلون، أمي قبرها في البحر وأنتم قبوركم في الطين...

لم يشهد البلد ريحاً كهذه، الكل يحتمي بداره، الطيور إلى أعشاشها، والأسماك تفر إلى العمق.. البلد في سكون كأنه الموت، وليس هناك إلا همهمات الرعب في القرية «استر يا رب»، والترانيم الخافتة امتزجت بحركات الأيادي لرسم الصليب، قطعت الكهرباء وأضيئت اللمبات (نمرة عشرة) حيث دخل الليل على البلد، والمنجي عائدٌ من الإسكندرية والبلل يملؤه ليقف على مقابر البلدة حيث استقر أبوه، هكذا كانت رحلة اليوم من قبر أمه إلى قبر أبيه ما الذي يحدث داخلك اليوم يا منجي، صرخ الشيخ باهي صرخة رجت البلد وهو في طريقه للمسجد ليؤذن للمغرب «ارحمنا يا قيوم مما سيجري اليوم»، الخبر جاء إلى

العمدة بالتليفون، ارتج البلد، لقد مات فارسها الجديد، السيد عبد الرحيم البلطي، كيف حدث هذا؟ لا أحد يعرف؟ من فعلها؟ وما السبب؟ كان قد ذهب إلى صابرين يسترضيها أتاها بلا سيارة ماشياً على قدميه، أتاها بلا سلطة ولا أموال، بعد أن أعلن تمرده على الذين صنعوه، استقطبوه في شرم، ودفعوا له الأموال، ليصنعوا منه تمثالاً يحركونه كما يريدون، تمرد عليهم دون أن يلقي بالاً لتحذيراتهم بأن دخول اللعبة ليس كالخروج منها، ولكنه لم يعد يهمه إلا إحساسه بالسكينة، العودة إلى حيث يرتاح ضميره، تتنفس فطرته النقية هواء الطهر، كان كالثوب الأبيض الذي لوثه غبار المدينة الأسود، وآن الأوان لينغمس في نهر التوبة فيعود كما أرادت له العناية، جرى إلى صابرين، أتاها بنفسه، السيد عبد الرحيم البلطي وحسب، بلا أفكار سلفية ولا يسارية، السيد عبد الرحيم البلطي، الإنسان، العاشق، تحدى بها النوة وخرج ليتزوجها عند أقرب مأذون، بعد أن أومأت الأم بالموافقة، كان كأنه يطير بها في سماوات اللذة، الآن يا صابرين ترتوين من السعادة، لقد صبرت كثيراً، وجاء وقت الحصاد، حيث تذوب الثمار الناضجة الشهية في شفاهك، شهوة الحياة، ارتعاشة الطائر في المطر والريح، كانا يرتعشان على البحر، يعبران الطريق في خفة، صدمته السيارة الغامضة المسرعة، لتسرق الحلم من صابرين، والحياة من السيد، وما أكثر الحوادث على الكورنيش والكل يتهم القدر، مات السيد، تاركاً لصابرين الثروة التي سترثها كزوجة، ولكنها أبدا ما أرادت المال يا سيد، كانت تريدك أنت، ولكنها لعنة المال، أبوها تركها قديماً وسافر ليعوضها بالمال، وسقطت أمها في الوحل من أجل

المال، يا وجعي يا سيد؟ ما أهون الحياة!!!

سمعت حياة الخبر، ارتجفت بشدة، أرادت أن تخرج إليه فمنعوها صرخت في وجوههم، إنه أخوها الوحيد، لا يريدون لها أن تراه حياً ولا ميتاً، إنهم كالصخر بقلوبهم الصوان وأجسامهم الضخمة، منعوها، فاضطروها إلى أن تحضر السلم الخشبي وتتسلق به السور، تقفز من عليه للناحية الأخرى، هل ارتج جنينها من السقوط أم قلبها من الهلع؟

تجمع الناس على المقابر بعد صلاة المغرب، وجدوا المنجي هناك، كان واقفاً كالمصروع يبكي على قبر أبيه كأنه فقده هذه اللحظة، ظن الناس أنه يبكي السيد، ولكنه لم يكن يعرف الخبر، الريح والموت والناس في يوم كأنه الخلاص، الكلوبات يحاولون حمايتها بأجسادهم حتى تضيء لهم موضع الدفن، تنكسر الكلوبات فيعودون لاستخدام المشاعل العتيقة، كشافات الكهرباء بالشاحن التي جلبتها دولارات السيد لا تصمد بطاريتها طويلاً، والسيد البلطي تأخر جثمانه الكثير، حتى دخلت سيارة الإسعاف تحمل الجثة، مع عشرات السيارات الفخمة، والرتب المهمة وعربات الأمن المركزي، أم السيد لا تكف عن الصراخ والعويل، تهيل التراب على رأسها، بينما أبوه تلوثت عباءته الإمبريال بالطين، والمنجي مازال يبكي على قبر والده كالمغيب، تجري حياة وهي تصرخ «استناني يا سيد.. لسه بدري يا خويا.. دهنالك المقعد بالحنة والبويا»، ولكن السيد لم ينتظرها، حمله الرجال بعيداً، جرت وراءهم، تتوسل إليهم أن تراه، تشد في ملابسهم كالمخبولة، أفاق المنجي على صراخ

حياة، نظر حوله في ذهول، قفز إليها مخترقاً الزحام، سقطت قبل أن يصل إليها لم تتحمل أن ترى النعش يصل بأخيها إلى حيث فتحة القبر، أدخلوه إلى ظلامه الشديد الموحش، إنه الكابوس الأعظم يا منجي، وجد نزفها وقد ملأ الأرض، لم يتحمل أن يرى ابنه الذي ينتظره وهو دماء لوثت التراب بين يديه، سقط هو الآخر إلى جوار حياة، جسدان ينبضان على الأرض، روحان يرقصان على الزجاج المكسور، يملأ النزف المكان، بلا أنات تتصاعد ولا رجع يعود، الصمت يسود برهة كأنه صدمة الناس، بينما يعلو صوت الشيخ باهي في الجموع الغفيرة «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

«تمت بحمد لله»

(البحيرة – سبتمبر ٢٠٠٨م)

محمد عبدالمنعم الحناطي

- مصر ١٩٨٠
- بكالوريوس تربية
- يعمل في المجال التربوي
- من إصداراته:
  - الأميرة العانس (شعر عامي)
  - أنوثة جديدة (شعر)